الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإنسانية

سنة ثالثة تاريخ عام

العلاقات الثقافية والتجارية بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد السودان الغربي خلال القرنين 5 -10هـ/11 – 16 م

مذكرة معدة ضمن متطلبات نيل شهادة ليسانس (ل م د) في التاريخ العام

إعداد الطلبة

أسامة غربي

حنان فاضلي

خالد زعبي

فتيحة عجيمي

محمد البشير ساسي

محمد الهادي بكاكرة

محمود بن علي

يحي غربي

إشراف الأستاذ

* رابح رمضان

السنة الجامعية :1435/1434هـ,الموافق لـ:2014/2013م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ

سورة إبراهيم ، الآية 07

وقال رسول الله " لا يشكر الله لا يشكر الناس "

بعد الثناء والحمد لله الذي هدانا ووفقنا إلى طريق النجاح والسبيل القويم ، لا يسعنا إلا أن نتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان وخالص تقديرنا إلى الأستاذ المشرف " رابح رمضان " على ما بذله لنا من توجيه ومتابعه وإشراف ، ونسأل المولى عز وجل التوفيق له في مسيرته العلمية .

كما نتقدم بالشكر الجزيل إلى أساتذتنا في قسم التاريخ وخاصة الأستاذ " علال بن عمر " الذين قدموا لنا يد العون لإنجاز هذا العمل المتواضع .

كما لا يفوتنا أن نقدم شكرنا الخالص إلى كل من مد لنا يد العون من قريب أو بعيد ، ولو بكلمة دعاء ، وإلى كل من أضفى بلمسته في تنظيم وطباعة هذه المذكرة .

وإلى كل هؤلاء شكراً جزيلاً . . . .

ثبت المختصرات

1– (د ت): دون تاريخ.

2– (د ط): دون طبعة.

3– (ت): توفي .

4– (تح): تحقيق.

5– (تع): تعليق.

6– (ج): جزء.

7– (ط): طبعة.

8– (ص): صفحة.

9– (ص – ص) : صفحات.

10– (ع): العدد.

المقدمة

بدأت الاتصالات بين المغرب الأوسط والسودان الغربي منذ البواكير الأولى للعصر الإسلامي وتعززت أكثر على عهد الدويلات المتلاحقة ، حيث أقيمت علاقات اقتصادية وثقافية أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها متينة ، حيث انتقلت هذه المؤثرات مع القوافل التجارية والوفود الدبلوماسية، وما نتج عنها من تغير في الخارطة الاقتصادية والثقافية للمنطقة .

من هنا ارتأينا تسليط الضوء على هذين الجانبين و أثارهما والخوض في أغوار الموضوع باعتبار أن السبق كان لأهل المغرب الأوسط في إيصال الإسلام للمنطقة وبالتالي كان التمازج والترابط .

إضافة إلى رغبتنا الملحة في التعرف على هذه الحقبة الزمنية من تاريخ المغرب الأوسط والتوغل في عمق الصحراء الإفريقية وما تحويه من عادات وتقاليد وما كان لها من أثر وتأثير على بلاد المغرب الأوسط .

ونسعى في تناولنا لهذا الموضوع إلى محاولة الإجابة على الإشكالية الرئيسية التي نرى فيها بابا لمعالجة الموضوع محل الدراسة والتي مفادها .

كيف كانت العلاقات الاقتصادية والثقافية للمغرب الأوسط مع السودان الغربي في الفترة الممتدة بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين ؟

لتنضوي تحتها مجموعه من الإشكاليات الفرعية والتي مفادها ماهي السلع الصادرة والواردة بين المنطقتين؟ وما هي المراكز التجارية المعتمدة وأبرز الطرق التي سلكوها ؟ وما هي مخاطر تجارة القوافل وماذا فعلوا لتأمينها ؟

وما هي أبرز ملامح الحركة الثقافية في المنطقتين ؟ والعوامل المساعدة على التواصل ؟ و ما هي مظاهر تأثير المغرب الأوسط على الثقافة في السودان الغربي ؟

ولمحاولة الإجابة على هذه الإشكالية اتبعنا المنهج التاريخي القائم على الوصف والتحليل.

معتمدين على الخطة التالية : حيث ابتدأنا بفصل أول أعطينا لمحة تاريخية عن المغرب الأوسط والسودان الغربي ، وتحدثنا عن الأوضاع السياسية لكليهما ، حيث تعرضنا لدلالة المصطلح بين التاريخ والجغرافية ، ثم أوردنا الأوضاع السياسية في المغرب والسودان الغربي وتناولنا الدول في الأولى والممالك في الثانية .

والفصل الثاني بعنوان العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي هذا النشاط الذي يقوم به سكان المغرب الأوسط مع بلاد السودان الغربي وأدرجنا فيه أربعة مباحث جعلنا الأول للسلع المتبادلة تحدثنا فيه عن صادرات السودان الغربي من ذهب ورقيق وعاج وغيرها . وصادرات المغرب الأوسط من ملح وتمور وخيول وغيرها ، والمبحث الثاني تناولنا فيه وسائل التبادل من مقايضة ومعاملات نقدية وصكوك ، أما المبحث الثالث تعرفنا على الطرق والمسالك المتبعة لإيصال السلع إضافة إلى المراكز التي كانت قبلة التجار السودانيين والمغاربة على حد سواء ، وفي المبحث الرابع كان الحديث عن نظام سير القوافل وكيفية تأمينها .

أما الفصل الثالث فهو بعنوان العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي أدرجنا فيه ثلاثة مباحث تعرضنا في الأول لواقع الحياة الثقافية للمغرب الأوسط ، وواقع الحياة الثقافية للسودان الغربي ، والمبحث الثاني كان عرضا للعوامل المساعدة على التواصل الثقافي بين المنطقتين ، تعرضنا فيه لدور التجار في نشر الدين الإسلامي ، ودور الملوك في دعم تواجده وتثبيت أركانه ، ودور الرحلة المتمثلة في الفقهاء والعلماء لإعطاء الدروس والدعم والإرشاد ، أما المبحث الثالث فكان عن مجالات تأثير المغرب الأوسط في السودان الغربي ،حيث تحدثنا فيه عن انتشار المذهب المالكي والاباضي وانتشار اللغة العربية ، وظهور الطرق الصوفية في مقدمتها القادرية والشاذلية .

وقد ذيلنا البحث بخاتمة كانت عبارة عن مجموعه من الاستنتاجات المستخلصة من خلال دراستنا لهذا الموضوع.

ولقد اعتمدنا على جملة من المصادر والمراجع لإثراء موضوعنا ومن أهمها : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لعبد الرحمان بن خلدون (ت 750 هـ/1349م) وخاصة في الجزء الخاص بملوك السودان ، أين نجد معلومات قيمة لم يسبقه إليها أحد ، وقد نقل عنه الكثير من المؤرخين العرب خاصة القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشا تحديدا في ما يخص أصل ملوك السودان وعلاقتهم بدول المغرب ، وكتاب أبو عبيد الله البكري (ت 487هـ /1094م) في

كتابه "البيان المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" وهو مقتبس من كتابه المسالك والممالك والذي يذكر فيه مواقع القبائل السودانية والمغربية والمسافات بين المدن واهم الطرق والمسالك ، كما يتطرق فيه إلى ملك غانا وحركة المرابطين ، ودورها في بلاد السودان ، هذا بالنسبة لكتب التاريخ ، أما بالنسبة لكتب الجغرافيا فقد قدمت لنا تفاصيل كثيرة ومعلومات غزيرة ، عن البلدان ومواقعها وعاداتهم وشعوبهم ورصدت لنا أهم الطرق والمسالك التجارية ، من أهمها كتاب " صورة الأرض" لابن حوقل الذي عاش خلال القرن الرابع للهجري والعاشر الميلادي ، وكتاب المسالك والممالك لابن إسحاق الاسطخري الذي عاش في أواخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، العاشر ميلادي ، وكتاب "وصف إفريقيا" لحسن الوزان الذي قام برحلته إلى بلاد السودان ، عام 917هـ / 1511م ، وجمع لنا معلومات مهمة عن مواقع المدن السودانية ،وخصائصها وأوصافها .

هذا بالإضافة إلى بعض المراجع ككتاب عصمت عبد اللطيف دندش دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، وكتاب أحمد شكري الإسلام والمجتمع السوداني في إمبراطورية مالي وكتاب جودت عبد الكريم وكتابه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الأوسط ، وقدمت لنا هذه المراجع معلومات مهمة لفهم التطور السياسي أهم الممالك السودانية وكيف انتشر الإسلام فيها وكيف كانت علاقتها بالدول المجاورة .

ولقد واجهتنا في إعداد هذه المذكرة جملة من المصاعب منها ندرة المادة العلمية خاصة ما يتعلق بالجانب الثقافي ، وصعوبة استخراج المادة العلمية من مصادرها الأصلية ، وافتقار المكتبة المركزية لكتب تتناول الموضوع بالشرح والتحليل الكافيين مما جعلنا نلجأ إلى المجلات والدوريات والكتب الإلكترونية الغير متاحة طباعة مما يجعلنا في حرج عدم تطابق الصفحات بين المطبوع والإلكتروني ،وفي الأخير نعتذر عن كل نقص وتقصير ونرجو أن نكون قد وفقنا في الإلمام بأهم جوانب الموضوع .

الفصل الأول : لمحة تاريخية حول المغرب الأوسط والسودان الغربي

أولا : المغرب الأوسط

1 - المغرب الأوسط بين الكتابة الجغرافية والكتابة التاريخية

2 - الأوضاع السياسية للمغرب الأوسط 5- 10هـ/11 - 16 م

ثانيا : السودان الغربي

1- الدلالة التاريخية و الجغرافية :

2- انتشار الإسلام والممالك التي قامت بالسودان الغربي:

أولا : المغرب الأوسط

1 – المغرب الأوسط بين الكتابة الجغرافية والكتابة التاريخية

أ– المغرب الأوسط في الكتابات الجغرافية :

لم يكن لمصطلح المغرب الأوسط وجود في الكتابة الجغرافية قبل عصر البكري الأندلسي ، فأغلب ما كتبه الجغرافيون عن ممالك المغرب الإسلامي وأقاليمه ، كان يستند في معظمه على معيار سياسي صرف تعبيرا عن الحالة السياسية التي كانت سائدة فيه سواء في فترة انقسامه إلى إمارات ودويلات مع الأغالبة في إفريقية والرستميون في تيهرت والأدارسة في المغرب الأقصى والمدراريين في سجلماسة[1] أو في فترة الأغالبة العبيدية حين استولى الفاطميون على إقليم الإمارات المذكورة .

أما البكري (ت487هـ /1094م)، الجغرافي الأندلسي الشهير فهو أول من استعمل مصطلح المغرب الأوسط ، بعد توضيحه لحدود فضاء المغرب الواسع الممتدة من برقة إلى طنجة ، ثم قسمه إلى ثلاث مناطق هي: إفريقية وقاعدتها القيروان، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان والمغرب الأقصى الذي يمتد من غرب تلمسان إلى البحر المحيط[2].

إن بروز المغرب الأوسط كمصطلح جديد يعبر عن مجال جغرافي ما ، يطرح عدة إشكالات وتساؤلات على أي أساس وظف البكري هذا المصطلح ؟ ولماذا تلمسان قاعدته دون غيرها ، إن المتمعن في نص البكري حول مدينة تلمسان يتبين أن اصطلاحه ذاك على معيار قبلي في قوله "هي دار مملكة زناته وموسطة قبائل البربر" [3] .

أما الإدريسي (ت 560هـ/1164م) فيذكر أن المغرب الأوسط يقع في الجزء الأول من الإقليم الثالث وقاعدته بجاية فيقول " مدينة بجاية في وقتنا هذا (أي النصف الثاني من القرن السادس) مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد[4] ثم يذكر بعض مدن المغرب الأوسط مثل باغاي وقسنطينة وطبنة ونقاوس ومقرة والمسيلة والقلعة وتدلس وجزائر بني مزغنة وبرشك وتنس ، أما تلمسان فلم يدرجها ضمن

---

[1] – الإصطخري أبو القاسم محمد بن إبراهيم : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال ، دار القلم القاهرة ، (د ت) ، ص ص 32 ، 33 .

[2] – البكري أبو عبيد الله : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، مكتبة المثنى ، بغداد ، العراق ، (د ت) ، ص75 .

[3] – نفسه : ص ص 76 ، 77 .

[4] – الإدريسي أبو عبد الله : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 ، ص 161

مدن المغرب الأوسط وقال عنها " مدينة تلمسان قفل مدن المغرب الأوسط وهي على رصيف للداخل والخارج منها "[1] .

فالإدريسي في طرحه هذا اعتمد المعيار السياسي في توضيحه لحدود الأقاليم والممالك ، فالمغرب الأوسط عنده هو المجال الخاضع للحكم الحمادي (395-547هـ / 1004-1152م) الممتد من بونه شرقا إلى سويسرات (سيق حاليا) غربا ومن الساحل المتوسط شمالا إلى ورجلان جنوبا [2].

في حين يقسم الزهري (ق6هـ/ 12م) الجغرافي الأندلسي بلاد المغرب إلى ثلاث أصقاع إفريقية والمغرب الأقصى والسوس الأقصى ، ويذكر أن إفريقية تسكنها قبائل من البربر مثل صنهاجة وزناته وبرغواطة ومن مدنها الساحلية طرابلس وتونس وبونه وبجاية وجزائر بني مزغنة وبرشك ، ومن مدن التل قسنطينة والقلعة ومليانه وزواوة ، أما الصقع الثاني أي المغرب الأقصى فيذكر أن أول مدينه تنس وتليها وهران وهنين ومليلية ، ومن أهم مدنه الداخلية تيهرت وتلمسان وغيرهما [3]، فالزهري هنا يعبر عن حالة المغرب السياسية السائدة في القرن السادس في ظل الحكم الموحدي ،الذي امتد من طرابلس حتى البحر المحيط لذا لا نجد أثرا لمصطلح المغرب الأوسط في كتابه .

أما صاحب كتاب "الاستبصار "المنسوب لابن عبد ربه الحفيد (من ق 6هـ/12م) فيقسم المغرب إلى عدة أقاليم : إفريقية وأول مدنها طرابلس ، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان وينتهي إلى مدينة أجر سيف على وادي ملوية ، والمغرب أي الأقصى ويشمل ما وراء وادي ملوية حتى البحر المحيط[4].

أما ياقوت الحموي (ت 626هـ/1228م) فيقسم المنطقة بعد مصر إلى : إفريقية والمغرب فإفريقية تمتد من برقة إلى بجاية ، والمغرب يمتد من مليانة إلى جبال السوس المحاذية للمحيط الأطلسي والأندلس جزء منه[5] ، فياقوت الحموي معاصر للدولة الموحدية ،وكان تقسيمه على أساس سياسي يعبر عن أقصى اتساع بلغه الموحدون واستطاعوا أن يفرضوا سلطتهم عليه .

أما ابن سعيد المغربي (ت685هـ/1286م)فيقسم المغرب إلى عدة أجزاء كذلك ، ويذكر أن تلمسان تقع في الجزء الأول من مراكش وفاس والأندلس، أما المغرب الأوسط ، فيقع حسبه في الجزء

---

[1] – الإدريسي أبو عبد الله : المصدر السابق ، ص – ص ، 124 – 151 .

[2] – محمد الأمين بلغيث : نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي ، دار الخلدونية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2007 ، ص ، 61 .

[3] – الزهري محمد بن أبي بكر: كتاب الجغرافيا ، تحقيق محمد صادق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، (د ت) ص – ص ، 107 – 114 .

[4] – مجهول المؤلف : الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، وزارة الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، بغداد (د ت) ، ص ص . 110 ، 170 ، 176 .

[5] – ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، 1977 ، ج1، ص228 -ج5 ، ص161 .

الثاني وقاعدته بجاية ،وهو يمتد شرقا حتى مدينة قسنطينة ، أما مدينة بونه فهي حد سلطنة إفريقية الحفصية على الساحل ، ومن مدن المغرب والوسط في هذا الجزء يذكر؛ مستغانم وتنس وبني مزغنة وتدلس وغيرها [1].

إن ابن سعيد بالرغم من أنه قد عاش فترة انقسام المغرب إلى ثلاث كيانات سياسية ، حفصية ومرينية وزيانية إلا أنه لم يبن تقسيمه على أساس سياسي كما كان متوقعا بل نقل عن غيره ممن سبقه كالإدريسي على وجه الخصوص .

أما الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي (توفي بعد 957هـ/ 1550م) فيقسم المغرب المعروف عنده ببلاد البربر إلى أربعة ممالك هي مملكة مراكش ومملكة فآس ومملكة تلمسان التي تضم الجبال والتنس والجزائر ، ثم مملكة تونس التي تضم إقليم بجاية وقسنطينة والزاب وطرابلس وغيرها [2]، ولا شك أنه وضع هذا التقسيم على أساس سياسي بذكره لتلمسان كمملكة مستقلة تحت سلطة بني عبد الواد في حين كان إقليم بجاية محل نزاع وصراع بين الحفصيين و الزيانيين ، يخضع للأقوى منهما .

فالخلاصة التي نصل إليها بعد هذا العرض ، هي أن مصطلح المغرب الأوسط تأخر ظهوره إلى غاية القرن الخامس هجري ، وأول من أشاع استعماله في المصنفات الجغرافية هو البكري الأندلسي تعبيرا عن كيان قبلي مركز ثقله قبيلة زناته البربرية ،أما مدلوله في المصنفات الجغرافية الأخرى ، فهو كيان سياسي لم يعرف حدودا رسمية إذ كان محل صراعات وأطماع توسعية لمختلف القوى السياسية التي تعاقبت على حكمه .

ب– المغرب الأوسط في الكتابة التاريخية .

فإذا كانت إشكاليتي مصطلح وحدود المغرب الأوسط بهذه الصورة الضبابية المضطربة في مدونات الجغرافيا الوصفية فما هي دلالتهما في الأسطوغرافيا[3] التاريخية .

إن المصادر التاريخية التي تناولت ماضي المغرب الإسلامي لم تعتني بجغرافية البلاد بنظرة واعية فباستثناء ما ذكره ابن خلدون لم ترد إلا إشارات محتشمة عند بقية المؤرخين فعبد الواحد المراكشي (ت 647هـ /1248م) لم يستعمل مصطلح المغرب الأوسط في تاريخه ، حين قسم بلاد المغرب إلى

---

[1] – ابن سعيد الأندلسي : الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2 ، 1982 ، ص–ص ، 40–42 .

[2] – الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1983 ، ج1 ،ص 28 ،30–31 .

[3] – الأسطوغرافيا : كلمة تعني الكتابة التاريخية والدراسة التي تتناول هذه الدراسة كمتون متماسكة لا كمجرد مواد مصدرية ، أنظر عبد الواحد السبتي : الإسطوغرافيا والأزمة (دراسات في الكتابة التاريخية والثقافية) ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 1994 ، ط1 ، ص8 .

قسمين إفريقية والمغرب وحد إفريقية من جهة الغرب هي مدينة قسنطينة وأول بلاد المغرب قرية صغيرة اسمها ميلة[1] ، فمن الواضح أن هذا المؤرخ عاش في الفترة التي سيطر فيها الموحدون على فضاء المغرب الإسلامي لأنه يعبر بوضوح عن تلك الحالة السياسية .

أما عبد الرحمن بن خلدون فيذكر أن قاعدة المغرب الأوسط هي تلمسان ثم يعدد لنا بعض المدن كالجزائر وبجاية وبونه[2] فهو لم يستند في تحديده لمجال المغرب الأوسط على الحالة السياسية ، بل اعتمد على تجمعات القبائل البربرية داخل هذا الكيان الجغرافي.

فقبيلة زناته كانت مستقرة في المنطقة الممتدة ما بين وادي ملوية غربا ، إلى وادي الشلف والزاب شرقا ومن ساحل شرشال ووهران شمالا إلى إقليم تيهرت جنوبا ، أما صنهاجة فهي تقطن الأقاليم الممتدة من الجزائر غربا إلى بجاية شرقا ، وكتامة وعجيسة وهوارة مضاربها منطقة جيجل وبونه وقسنطينة والأوراس ، وما وراء حدود إفريقية إلى طرابلس[3] .

إن الطرح الخلدوني القائم على المعيار القبلي هو طرح منطقي إلى أبعد الحدود وهذا بالنسبة لمرحلة ما قبل القرن الخامس هجري ، إذ عرف المغرب في النصف الثاني من هذا القرن بتغريبه بني هلال وبني سُليم[4] الذي استعملهم المستنصر الفاطمي (427- 487هـ/ 1035-1094م) كرأس حربة في الدولتين الزيرية والحمادية ، بعد خروجهما عن طاعته فهذه الهجرة غيرت من تراتبية الهرم الديمغرافي للمغرب الأوسط باعتبارها عنصراً اثنيا جديدا زاحم بعض القبائل البربرية في مناطق استقرارهم غير أن ابن خلدون لم يهمل ذلك أيضا بل وضح لنا مواطن انتشار القبائل العربية في المغرب الأوسط في فترة القرن 6هـ/ 12م في المنطقة الممتدة من بونه شرقا إلى ما وراء تلمسان غربا إلى الصحراء جنوبا [5].

فرضا إذا اعتمدنا في التحديد الجغرافي للمغرب الأوسط على الطرح السياسي ، فإنه لا وجود لهذا الكيان في العهد الموحدي ، باعتبار أن المغرب ككل لسلطة مركزية واحدة ، إلا أن المغرب الأوسط ضل موجودا في تلك الفترة فلم يدخله ابن حماد البرنسي كما نقل عنه ابن عذارى اعتباطا ضمن أقاليم المغرب ، بل بعين المؤرخ الذي يعي بوضوح أن السلطة السياسية لا تلغي وجود كيان جغرافي قائم بذاته بمجرد أنه بعيد عن السلطة المركزية وكرسي الملك .

---

[1] – عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط1 ، 1998 ، ص 256.

[2] – عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، تحقيق محمد الاسكندراني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،ط1 ، 2006 ، ص 65 .

[3] – نفسه : ص ص ، 203 – 204 .

[4] – بنو هلال نسبة إلى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية ، أنظر ابن سلام :كتاب النسب ، مريم محمد خير الدرع ، دار الفكر ، بيروت ، 1989 ، ص263 .

[5] – عبد الرحمن ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1983 ، ج 6 ، ص 129 .

وإذا اتبعنا الطرح السياسي في عصر انقسام المغرب إلى كيانات مستقلة : السلطنة الحفصية والإمارتين الزيانية والمرينية ، فإن المغرب الأوسط تجلت حدوده بوضوح عندما بلغت الإمارة الزيانية أقصى اتساع لها إذ امتدت من نهر ملوية إلى بجاية وقسنطينة شرقا ، وجنوب الصحراء ومن الجنوب الغربي إقليم فيجيج[1] ومن الجنوب الشرقي بلاد مصعب الإباضية[2].

هذا في فترة قوة بني عبد الواد ، أما في مرحلة ضعفهم المتزامنة مع التدخل المريني في المغرب والتدخل الحفصي في الشرق .

فمن غير المعقول أن نعتمد الطرح السياسي كمعيار نحدد به جغرافية المغرب الأوسط لأن المغلوب يبقى العنصر السائد في مجاله الجغرافي ، ولا يتبع الغالب إلا ولاءً أو ضعفا ، ولهذا بالرغم من فترات القوة والضعف التي انتابت المغرب الأوسط ، فقد ظل المغرب موجودا أرضا وشعبا بحدوده الغربية والشرقية ، دون أن تكون له سلطة سياسية موحدة[3].

2 – الأوضاع السياسية للمغرب الأوسط 5– 10هـ/11 – 16 م

لا شك أن المغرب الأوسط طيلة هذا الزمن الطويل الذي امتد لأكثر من خمسة قرون من بداية القرن الخامس إلى غاية القرن العاشر هجري الموافق للقرن العاشر إلى السادس عشر الميلادي ، قد عرف فيها تغيرات سياسية وتقلبات كان لها الأثر المباشر على بنية السكان وتطورهم فما هي الأوضاع التي عاشها المغرب الأوسط وماهي أبرز مظاهرها.

في يوم الخميس 3 ربيع الأول 386هـ/ 26 مارس966م توفي المنصور بن بلكين فتولى ابنه باديس الحكم من بعده والذي لقبه الفاطميون بنصير الدولة وفي عهده بدأت الدولة الصنهاجية تعاني من مشاكل عديدة ، ويبدو أن باديس قد قرر أن يخالف وصية المعز لدين الله لجده بلكين والذي قال له" لا تولي أحد من إخوتك وبنيك لأنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك " فقد شعر باديس بأن الفاطميين يحرضون كتامة ضد صنهاجة وأن الناس قد سئموا من الدعوة الفاطمية ، وعندما كثرت عليه الثورات قرر أن يستعين بعمه للقضاء على دعوة زناته المعادية له ، وفي المقابل يتولى المغرب الأوسط وأن تخضع المناطق التي يحتلها لسلطته فوافق باديس وتمكن عمه حماد من القضاء على دولة زناته سنة 395هـ/1005م وفي عام 398هـ/1007م شرع حماد في بناء قلعته بمدينة المعاضيد ثم بمدينة بجاية وفي

[1] – فجيج أوفكيك : عبارة عن ثلاث قصور وسط الصحراء بها عدد كبير من النخيل وتبعد عن سلجماسة بنحو مائتين وخمسين ميلا أنظر الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 132 ،133 .

[2] – Aatallah Dhia: le Royaume abdelouadide al'epoque d'Abou Hammou Moussa 1er et d'Abou Tachfine 1er. Alger :ENAL-OPU. p19 .

[3] – عبد الرحمن بن خلدون : العبر ، المصدر السابق ، ج6 ، ص ص ، 699 ، 700 .

سنة 405هـ/1014م أعلن حماد عن تأسيس دولته الحمادية الموالية للدولة العباسية ، وبذلك انقسمت الدولة الصنهاجية إلى شرقية وغربية ، وحاصر باديس القلعة وحاول أن يقضي على دولة بني حماد ولكنه توفي سنة 407هـ/1016م ، وجاء بعده ابنه المعز الذي تفاوض مع حماد وإتفقا على إقامة بني باديس في القيروان وبني حماد في القلعة وقرر أن يدعو للعباسيين ونتيجة لهذه الدعوة جاءت حملات الهلاليين بإيحاء من الفاطميين سنة 442هـ/1051م وتمكنوا من القضاء على البادسيين في القيروان وتضييق الخناق على الحماديين وقد سقطت دولة الحماديين سنة547هـ/1253م يوم كان أُمراؤها غارقين في الشهوات ووزراؤها غارقين في الطمع ، وبعده اضطر يحي بن العزيز إلى التنازل عن عرشه للموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي الذي بايعه أهل المغرب على السمع والطاعة[1] .

أجمع المؤرخون على أن بداية الانهيار الذي عرفته الدولة الموحدية مرتبط بواقعة العقاب 609هـ /1203م ، فإن المغرب الأوسط قد عرف بداية النهاية للتبعية الموحدية قبل ذلك بقليل في أواخر القرن السادس هجري نتيجة ما خلفته غزوة بني غانية عندما استنجد بهم أعيان وأمراء مدينة بجاية من بني حماد الرافضين للتبعية الموحدية ومما ساعد بنو غانية دعم بنو هلال وغياب والي المدينة أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن فتم الاستيلاء عليها في يوم 6 شعبان 580هـ/1184م [2]، وولي عليها يحي بن غانية وتوغل يحي بن إسحاق على مناطق المغرب الأوسط فاستولى على الجزائر وبني مزغنة وملیانه والقلعة ، ثم رجع إلى بجاية وأخذ من أهلها البيعة على إقامة دعوة لبني العباس [3].

حاولوا الاستيلاء على مدينة قسنطينة فحاصروها لكنهم فشلوا في اقتحامها وحين بلغ الخبر الخليفة ألموحدي يعقوب المنصور حرك جيش قوي من مراكش سنة 583هـ/1188م فحرر بجاية[4] وبعد وفاته أعاد يحي بن غانية الهجوم على بجاية سنة 599هـ/1204م وبسط نفوذه عليها لمدة سنتين حتى استردها الناصر ألموحدي سنة 601هـ/ 1206م مع جميع بلاد إفريقية [5]ثم رجع إلى بلاد المغرب 603 هـ /1208م بعد أن ولى على إفريقية أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني وقد اعترضه بنو غانية في معركة شبرو أواخر سنة 604هـ/1207م وبعد هذه الهزيمة أدرك بنو غانية قوة خصومهم فقرروا أن يوجهوا أنظارهم إلى الغرب صوب تلمسان خاصة بعد أن تلقوا الدعم من قبائل زناته فدخلوا

---

[1] – عمار بوحوش : التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،ط1 ، 1997 ص 39 .

[2] – عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص–ص ، 192 – 194 .

[3] – ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج ، س كولان بروفنسال ، دار الثقافة بيروت ،ط3 ، 1983 ، ص، ص175 ، 176 .

[4] – ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1968 ، ص ص 103 ، 104 .

[5] – الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ،ط2 ، 1996 ص17– 18 .

تيهرت وحاول والي تلمسان إنقاذها لكن مني بشر هزيمة ليكمل بنو غانية السير حثيثا نحو تلمسان فحاصروها ولم يتسن لهم دخولها لمناعتها اللهم إلا بعض المدن والقرى المحيطة بها لمناعتها[1] ، وحين وصلت الأنباء مسامع الخليفة في مراكش عين والي جديد عليها وهو أبو زيد ابن يوجان وعقد له جيش قوي لمقاتلة بنو غانية مما اضطرهم إلى التراجع نحو إفريقية ليجدوا عبد الواحد الحفصي الهنتاني لهم بالمرصاد أين قضى على فلولهم بالقرب من جبل نفوسة 606هـ/1211م ، لقد تركت هذه الحروب الدائرة بين الموحدين والمرابطين من بني غانية بصمتها الواضحة على العمران والاقتصاد[2].

وما كاد الموحدون أن يتخلصوا من خطر بني غانية في العدوة المغربية حتى تعرضوا لهزيمة نكراء أمام النصارى في معركة العقاب 609 هـ/ 1214م ، البداية الفعلية لانهيار هذه الدولة وتفكك عرى قوتها ووحدتها [3]، ولم تعرف الدولة الموحدية بعدها استقرارا لأنها شهدت سلسلة من الثورات والفتن الداخلية فانعدم الأمن وامتنع الناس عن دفع الضرائب وما عزز هذا الضعف أكثر التناحر بين أبناء البيت الحاكم حول السلطة التي آلت في النهاية إلى المأمون بعد أن استعان بالنصارى الأسبان وعمد إلى نبذ المذهب التومرتي واعتبره مسلكا للبدعة[4] لكسب ولاء فقهاء المالكية وتعزيز شرعية حكمه بهم ، إن هذه الظروف التي عاشها المغرب الأوسط أدت إلى ظهور إرهاصات تفكك الدولة الموحدية وانحصار مناطق نفوذها في بعض الجهات ، وأول مبادرة للانفصال كانت من الشرق حيث استغل أبو زكرياء الحفصي الظروف المتردية وأعلن استقلاله بإفريقية عن سلطة مراكش 623هـ /1226م وأتخذ من تونس عاصمة لملكه[5]حيث بويع البيعة الأولى 626 هـ /1228 م ، وانطلق بعدها في تنفيذ مشروعه التوسعي نحو الغرب فاستولى على قسنطينة 26شعبان 626 هـ /1228م ، ثم ضم بجاية وجزائر بني مزغنة [6] ثم بويع بويع البيعة الثانية سنة 634 هـ / 1236 م وذكر اسمه في الخطبة وتلقب بلقب الإمارة ليتحرك بعدها من جديد لإعادة ضم المغرب الأوسط إلى نفوذه ، فضم بجاية وولى عليها ابنه يحي واستولى على الجزائر وولى عليها واليا من قِبَلِه وبعدها ارتحل إلى تلمسان سنه 639 هـ / 1241م ، فدخلها وأخذ البيعة من

[1] – محمد بن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط2 ، 1984 ، ص127.

[2] – ابن خلدون : العبر ، ج 7 ، ص 161 .

[3] – مجهول : الذخيرة السنية في الدولة المرينية ، تحقيق محمد ابن شنب ، الجزائر ، 1920 ، ص 22 .

[4] – ابن خلدون : العبر ، نفس المصدر ، ج 6 ، ص 594 .

[5] – الزركشي : المرجع السابق ، ص 23 – 24 .

[6] – ابن قنفد القسنطيني : المصدر السابق ، ص108 .

صاحبها يغمراسن بن زيان[1]، وبعد كل هذه الانتصارات انضوت جل أراضي المغرب الأوسط تحت لواء السلطة الحفصية [2].

ثم بعد وفاته في عنابة يوم الجمعة 12 جماد الثاني سنة 647هـ/ 22 سبتمبر 1249 ودفن بجامعها ، تغيرت مجرى الأمور حيث قامت حروب أهلية كثيرة بين رؤساء الدويلات المتواجدة في الجزائر تسببت في انقراض الدولة الحفصية سنة 748هـ/1347م إضافة إلى هجمات الأسبان والبرتغاليين على المدن الساحلية بشمال إفريقيا [3].

إذا كان شرق المغرب الأوسط في أغلب مراحل الفترة الممتدة مابين القرنين السابع والعاشر الهجريين تابعا للسلطة الحفصية ، فإن الغرب منه قد خضع لسلطة قبيلة زناته التي تحولت إلى إمارة ذات وزن في تاريخ المغرب الإسلامي حيث ظهر بنو عبد الواد أول أمرهم كقوة معارضة للدولة الموحدية لكنهم ركنوا في النهاية إلى طاعتها وأصبح كل بطون زناته من أخلص القبائل التي اعتمد عليها الموحدون لخدمة مشروعهم ، ومكافأة لهم على هذا التحالف أعطيت لهم منطقة تلمسان على أن يبقوا تحت لواء السلطة الموحدية[4] ، إلا أن الوضع تغير يوم ضعفت الدولة الموحدية حيث أعلن يغمراسن نفسه أميرا على إمارة تلمسان سنة 633هـ /1335م وعندما خرج له الخليفة المعتصم ليؤدبه ويسترد سلطة تلمسان تمكن يغمراسن من مخادعته وقتله يوم الثلاثاء 10 صفر 646هـ/ 4 جوان 1248م وتمكن الحفصيون من محاصرة تلمسان 640هـ/1242م لكن والدة يغمراسن تفاوضت معهم واتفق الطرفان على الدعوة للحفصيين ودفع أموال سنوية لخزينة الدولة ، وبعد وفاة يغمراسن 681هـ/1283م تولى ابنه أبو سعيد عثمان الذي سالم الحفصيين شرقا والمرينين غربا وتفرغ للسيطرة على الدويلات الصغيرة الموجودة بالجزائر إلى أن قام سلطان بني مرين أبو يعقوب يوسف بمحاصرته لمدة 8 سنوات وتوفي أبو سعيد عثمان واستلم السلطة ابنه محمد ابن سعيد 703هـ/1304م وتغيرت مجرى الأحداث بوفاة السلطان أبو يعقوب المريني 706هـ /1307م وانتهى الحصار بالصلح بين الدولة الزيانية والمرينية .

وعندما ضعفت الدولة المرينية قام السلطان أبو حمو الأول الذي تولى السلطة بعد شقيقه أبو زيان الأول في 707هـ/ 1307م باستعادة جميع المناطق التي احتلها خصوم الزيانيين كالجزائر ، وبالرغم من هذه الانتكاسات استطاعت الدولة الزيانية أن تحافظ على كيانها السياسي طول هذه المدة لكنها لم

[1] – ابن الشماع التونسي : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق الطاهر المعموري ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1984 . ص 58 – 59 .

[2] – عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب ، المركز الثقافي العربي ، ط2 ، 2000م ، ص195– 196 .

[3] – عمار بوحوش : المرجع السابق ، ص43.

[4] – عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج7 ، ص150 ، 151 ، 159 .

تستمر طويلا أمام الخطر الإسباني لتنتهي صفحة التاريخ الوسيط بتغلب العثمانيين عليها سنة 962هـ/1554م ، بعد أن خلعوا آخر أمرائها الحسن بن عبد الله الثاني [1].

ثانيا : السودان الغربي

1- الدلالة التاريخية و الجغرافية :

كان العرب أول من أطلق كلمة السودان على الأقوام ، التي تقطن جنوبي الصحراء الكبرى إلا أنهم كانوا يطلقون هذا اللفظ أحيانا على كل السود الإفريقيين ، إن ذكر بلاد السودان الغربي, قد استعمل للتمييز بينها وبين السودان الشرقي, الذي يشغل المنطقة الموجودة في جنوب مصر وبلاد النوبة[2].

كما يركز هذا المصطلح في التاريخ الإسلامي وخاصة في العصور الوسطى, للدلالة على دول جنوب الصحراء الكبرى, للتمييز بينها وبين شمال إفريقيا, التي تذكر بدويلات المغرب الإسلامي[3].

يطلق جغرافيو الغرب الإسلامي, على المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى بحيرة كوري شمال خط الاستواء وجنوب الصحراء, يطلقون عليها "بلاد السودان" وهي المنطقة تمثل المجال الموازي لبلاد المغرب, تفصلهما الصحراء الكبرى[4].

لقد أطلق البكري كلمة السودان في القرن الخامس الهجري, الحادية عشر ميلادي على ذلك الجزء من غرب إفريقيا, الذي يمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى مشارف النوبة على النيل شرقا واعتبر مدينة سجلماسة مدخلا إلى بلاد السودان[5] .

أما ابن حوقل فقد حدد منطقة السودان بقول" وأما جنوبي الأرض من بلاد السودان فإن بلدهم في أقصى المغرب من البحر المحيط, بلد ملتف... غير أن له حد, ينتهي إلى البحر المحيط, وحد له ينتهي إلى البرية وبينه وبين أرض المغرب وحد له إلى البرية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات"[1].

---

[1]- عمار بوحوش : المرجع السابق ، ص ص ، 45 ، 46 .

[2] – الهادي المبروك الدالي : التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء ، من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط1 ، 1999 ، ص 17 .

[3] – نور الدين شعباني : علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي ، وآثارها الحضارية بين القرنين الرابع والتاسع الهجري العاشر والخامس عشر الميلادي ،مذكرة ماجستير ، مخطوطة ،(معهد التاريخ جامعة الجزائر 2007) ، ص 3 .

[4] – أحمد الشكري : الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1230 -1240 ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، 1999 ، ص 57 .

[5] – البكري أبو عبيد الله: المصدر السابق ، ص 172 .

وذكر القلقشندي أن بلاد السودان يحدها من المغرب البحر المحيط, ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء, ومن الشرق بحر القلزم مما يقابل بلاد اليمن, ومن الشمال البراري تمتد ما بين مصر وبرقة وبلاد عرب مغاربة من جنوب المغرب إلى" البحر المحيط"[2] .

ونجد أن القزويني يحدد بلاد السودان الغربي جغرافيا, وبتلك المنطقة التي ينتهي شمالها إلى أرض البربر, وجنوبها إلى البراري وشرقها الحبشة وغربها إلى المحيط [3].

أما ابن خلدون فيقول : والسودان أصناف وشعوب وقبائل ، وأشهرهم بالمشرق الزنج والنوبة يليهم الزغاوة ، ويليهم الكانم ،ويليهم من غربهم كوكو وبعدهم التكرور ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانا[4].

وبعد استقراء أقوال المؤرخين العرب نستطيع أن نصل إلى تحديد قريب من الواقع وهو أن المنطقة تطل غرباً وجنوباً على المحيط الأطلسي ، وتحدها الصحراء الكبرى شمالاً ومن الشرق تتاخم بحيرة تشاد وباختصار تشمل المنطقة ما يعرف اليوم بحوض السنغال وغامبيا و فولتا العليا والنيجر الأوسط ، انظر الملحق (01) .

التضاريس :

منطقة السودان الغربي التي نحن بصدد الحديث عنها ، تتخللها هضاب ، وجبال ، منها سلسلة الجبال عبر طريق سيقو جاو ، وحجار ، وأهير (ايراسبن)وجبال اورار الشرقية والغربية .

وترتفع بعض أماكن الصحراء، إلى ستة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وتنخفض أخرى إلى مئة قدم تحت سطح البحر ؛ كما توجد بها الهضاب الصخرية ، والمسالك الفسيحة والسلاسل الجبلية المتقطعة ،وهناك أيضا الوديان ؛ وتقدر مساحة جزء الصحراء التي تسيطر عليها الرمال بحوالي التسع[5].

وقد أفاد الإدريسي بأن الأمطار قليلة ، من صحراء نيسر ، والتي يدخل عليها المسافرون إلى مدينة اودغست ، وغانة ، وهي صحراء قليلة البشر ،والماء بها قليل ، وشمسها قاتلة [1].

---

[1] – بن حوقل أبي القاسم النصيبي : صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992 ، ص 24 .

[2] – القلقشندي احمد بن علي الفزاري : صبح الأعشى في كتابة الإنشاء ، تع عبد القادر زكار ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1983 ، ج 5 ، ص 275 .

[3] – زكريا بن محمد القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، 1967 ، ص25 .

[4] – عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق ، ج5 ، ص234 .

[5] – هادي مبروك الدالي : المرجع السابق ، ص19 .

ومن الملاحظ أنه كلما بعدت المسافة عن الصحراء ، زاد هطول الأمطار وبذلك تزداد خصوبة التربة .

وهناك نهران في المنطقة ؛نهر النيجر، ونهر السنغال ،وهما يجريان بمحاذاة حافة الصحراء الجنوبية[2].

2- انتشار الإسلام والممالك التي قامت بالسودان الغربي:

أ – انتشار الإسلام:

يعتبر موضوع انتشار الإسلام في السودان الغربي, من أهم الأحداث التي شهدها هذا الجزء من إفريقيا حيث ترتب عليه نتائج سياسية واقتصادية وثقافية , غيرت السمات التي كانت عليها هذه المنطقة من قبل, كما أن حركة انتشار الإسلام وما أحدثه من تغيرات جوهرية, كانت محل اهتمام العديد من الكتاب والمؤرخين , وتعددت آراؤهم واختلفت حول حقيقة وطريقة انتشار الإسلام بالمنطقة.

وبانتشار الإسلام يبدأ العصر التاريخي لإفريقيا و السودان , والمقصود هنا بالعصر التاريخي هو بداية الحضارة, أي بروز الخصائص الحضارية لإفريقيا الإسلامية [3].

إن هذا التعبير يعطي للإسلام دورا عظيما في تاريخ السودان بصفة عامة والسودان الغربي بصفة خاصة, حيث أنه يمثل أهم عامل ربطه بالعالم الإسلامي, وقربه من المغرب الإسلامي.

1- دور التجار:

لقد دخل الإسلام في البداية إلى السودان الغربي بمجهودات فردية قام بها تجار شمال إفريقيا, الذين كانوا بمثابة دعاة , وان عظمة الإسلام تكمن في تعاليمه السمحة التي تدعو إلى مكارم الأخلاق والمعاملة الحسنة, وهي الأخلاق التي اكتشفها أهل السودان في التجار المسلمين, حيث لعبوا دورا عظيما في إعطاء صورة جيدة عن الإسلام ومبادئه التي وجدها سكان السودان مبادئ بسيطة غير معقدة, وكان الإسلام يمثل بالنسبة للتجارة جواز سفر لهم ولتجارهم.

إن التجارة ربطت السودان الغربي بشمال إفريقيا حتى قبل وصول الإسلام إلى المنطقة, إذ تعود إلى 500سنة قبل الميلاد, وربما قبل ذلك, عن طريق البربر القدامى الذين كانوا يتوغلون عبر الصحراء

---

[1] – الإدريسي أبو عبيد الله: القارة الإفريقية في جزيرة الأندلس ، (د ت) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1988 ، ص 107 .

[2] – عبد الرحمن زكي : تاريخ الدولة السودانية بإفريقيا الغربية ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، 1964 ، ص9

[3] – نور الدين شعباني : المرجع السابق ، ص47 .

بواسطة العربات والأحصنة إلى غاية أفريقيا الاستوائية, كما كان القرطاجيون يحملون سلعتهم إلى غاية السواحل الغربية لأفريقيا السوداء[1].

لكن أعظم فترة لانتشار وازدهار التجارة في المنطقة تزامن مع دخول الإسلام, حيث أصبحت تحمل معها مظاهر النبل والسلم والرفاهية عن طريق أخلاقيات التعامل التجاري التي ميزت التجار المسلمين عن سابقيهم[2].

وكان التجار المسلمون ينقلون الإسلام حيث امتدت طرقهم التجارية في بلاد السودان, منذ أواخر القرن الأول للهجرة قادمين من مصر عبر الطريق القديم (عبر صحراء الكفرة)[3], لكن عددهم كان قليلا وتأثيرهم كان ضعيفا[4], وما إن حل القرن الرابع للهجرة /العاشر للميلاد حتى بدأ يظهر التأثير الحقيقي للمسلمين بالمنطقة, لكن هذه المرة عن طريق التجار البربر المغاربة[5].

وعموما فإن انتشار الإسلام في المنطقة كان سليما في أغلبه, عن طريق التجارة لكنه بقي سطحيا واقتصر على مدن دون غيرها , ومع ذلك فإن التجار قاموا بدور لا يستهان به في نشر الإسلام ونقله إلى بلاد السودان الغربي, لكن بقي الدور الكبير هو الذي قامت به الفتوحات الإسلامية.

2- دور المرابطين:

لا شك أن دور التجار المسلمين قد ساهم بقسط وافر في نشر الدعوة الإسلامية في بلاد السودان الغربي, منذ صدر الإسلام ومجيء أولى القوافل الإسلامية إلى المنطقة.

كما أن الفتوحات الإسلامية الأولى في عهد عقبة بن نافع, التي وصلت إلى مشارف الصحراء وأيضا دور الأمويين كان ذا أهمية بالغة أيضا, إلا أن السودان لم يدخل بعد في التاريخ الإسلامي بالمعنى الذي يؤثر في الحياة العقائدية, التي كانت إلى غاية القرن الرابع للهجرة تسيطر عليها الكثير من المعتقدات البدائية, من عبادة الأرواح والأجداد المعروفة في إفريقيا السوداء.

---

[1] – دونالد ويدنز : تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ، تر راشد البراوي ، دار الجيل ، مصر 2001 ، ص37 .

[2] – شوقي عطا الله الجمل ، عبد الله عبد الرزاق : تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1966 ، ص86 .

[3] – هي صحراء تقع جنوب شرق الجماهيرية الليبية الحالية .

[4] – شوقي عبد القوي عثمان : التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000 ، ص39 .

[5] – عطية الفيتوري : دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء ، منشورات جامعة قار يونس ، ليبيا ، 1998 ، ص 104 .

إذن فالإسلام بقي ديانة المدن والتجمعات الحضرية , كما بقي إسلاما سطحيا ولم يتوغل جيدا في الحياة اليومية لسكان السودان الغربي, إن هذا الوضع تطلب فتحا جديدا للإسلام أي فتحا حقيقيا يكمل ما كان قد بدأه التجار. والفاتحون الأوائل ، ويعمل على غرس العقيدة الإسلامية في بلاد السودان الغربي, ويتطلب الدور رجالا ذوو عقيدة متينة ودولة قوية[1], وهو ما يتوفر من المرابطين الذين تعد دولتهم أول قوة وحدت المغربين الأقصى والأوسط , ولعبت دورا كبيرا في نشر الإسلام في الساحل الإفريقي الغربي وبلاد السودان[2].

إن ابن خلدون يؤكد هذا الرأي بقوله: "أن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم, واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال , مما يلي البربر , وعبروا على السودان , واستباحوا حماهم واقتصوا منهم الإتاوات والجزية, وحملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به"[3].

وكانت بداية سير الملثمين إلى بلاد السودان عام (433هـ/1042م)على رأس قوة عظيمة باتجاه مملكة غانة, وكان يتزعم المرابطين يحي بن إبراهيم زعيم قبيلة جدالة, وهي إحدى قبائل صنهاجة[4]، وكان برفقته فقيه من قبيلة جزولة , يدعى عبد الله بن ياسين (ت451هـ-1059) , ولكن أكبر انتصار حققه المرابطين على بلاد السودان وإمبراطورية غانة خاصة, هو الاستيلاء على أودغشت , التي كانت خاضعة لسلطان إمبراطورية غانة , رغم أن ملكها كان مسلما, وكان ذلك عام 446هـ/1054م وبدخول المرابطين أودغشت , وضعوا أرجلهم على أهم ممالك السودان, وعلى أهم محطة تجارية ذات حيوية اقتصادية و تجمع سكاني هام , كما أصبح المرابطين متمركزين على بعد ثلاثة أيام فقط من العاصمة الغانية كومبي صالح[5].

يبدو أن عدد المسلمين في بلاد السودان الغربي كان قليلا بشكل عام,وعندما بدأت دولة المرابطين في دخولها, بدأ عهد جديد من العلاقات بين بلاد المغرب و بلاد السودان.

---

[1] – شعباني نور الدين : المرجع السابق ، ص54 .

[2] – نفسه ، ص 54 .

[3] – عبد الرحمن ابن خلدون : العبر ، المصدر السابق ، ج6 ،ص130 .

[4] – السلاوي أبو العباس أحمد الناصري : الإستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، تح وتع جعفر الناصري ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955 ، ج5 / ص 117 .

[5] – عصمت عبد اللطيف دنش : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، 430 – 515هـ / 1038 -1121 م دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1988 ، ص81 .

اعتنق الأمراء الغانيون الإسلام , وانضموا إلى لواء الدولة المرابطية مع أتباعهم من السراكولي والديولا و الماديغا , وأصبحوا يقومون نيابة عن المرابطين بحملات جهادية لنشر الإسلام بين القبائل الوثنية, من القبائل البهل والموسي[1] , و بذلك كان للمرابطين دور كبير في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية في منطقة السودان الغربية, وساهموا في الحفاظ على الوضع الاقتصادي واستقراره, كما عملوا على تأمين طرق المواصلات الذاهبة إلى الشمال.

امتد الإسلام إلى معظم دول غرب ووسط إفريقيا, ومثل قوة سياسية متلاحمة , وكان العمل التاريخي لربط أواصر العلاقات بين الشمال والجنوب, ووسع العلاقات الاقتصادية والتجارية بين المنطقتين وقامت أيضا مبادلات فنية وثقافية وتقنية مبنية على الثقة , مساهما في تطور السودان الغربي , ويعتبر دخولها المنطقة , بداية ظهور الخصائص الحضارية لإفريقيا جنوب الصحراء.

ب – الممالك الإسلامية التي قامت في السودان الغربي:

إن انتشار الإسلام بين سكان بلاد السودان الغربي أدى إلى قيام جملة من الدول بعد ذلك وكانت على شكل ممالك وإمبراطوريات , سيطرت على مجرى الأحداث في المنطقة , ومن هذه الممالك والدول.

1– مملكة غانة:

وتعد أقدم ما تكلم عنه المؤرخون ومن الممالك السودانية إذ يرجع تاريخ نشأتها إلى القرن الثالث ميلادي[2] , كما أنها عرفت أطول مدة من الوجود والسيطرة في منطقة السودان الغربي , وذلك إلى غاية القرن 7هـ/13م ، وكانت تشغل المنطقة الممتدة من بلاد السنغال وحوض النيجر, وتمتد إلى جنوب موريتانيا الحالية وجزء من جمهورية مالي[3].

[1] – عبد الواحد ذنون طه وآخرون: تاريخ المغرب العربي ، دار الهدى الإسلامي ، لبنان ، 2004 ، ص289 .

[2] – جوان جوزيف : الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء ، تر مختار السويفي ، دار الكتب الإسلامية ، مصر ، 1984 ص47 .

[3] – شعباني نور الدين: المرجع السابق ، ص6 .

واشتهرت غانة بالذهب[1] , وقد ذكر محمود كعت إنه كان بمدينة غانة العاصمة , اثنا عشر مسجدا[2] , وكان بغانة أيضا كثيرا من العلماء ورجال الدين والأدب وطلاب العلم , وكانت العربية لغة التعامل ليس بين المسلمين فحسب, بل وفي جميع أنحاء الإمبراطورية وحاضرة غانة هي كومبي صالح[3].

لقد ازدهر اقتصاد غانة لرخائها وأمنها واعتمادها على التجارة أولا, وعلى موقعها الاستراتيجي بين مناجم الذهب في الجنوب ومناجم الملح في الشمال ثانيا[4], قاد ذلك إلى فتح البلاد تجاريا بين شمال الصحراء وجنوبها, فكان هذا مصدر غنى دائم لها.

وعلى الرغم من قدم مملكة غانة إلا أن ذروة مجدها وقمة ازدهارها لم تبلغهما إلا بين القرنين 3-5 هـ/ 9-11م عندما ظهرت المؤثرات العربية الإسلامية فيها بشكل جلي[5] .

وقد بدأ الضعف يدب في مملكة غانة منذ عام603هـ/1203م, حتى استطاع جيش أحد الأقاليم التابعة لها وهو إقليم صوصو[6] أن يهاجم العاصمة ويستولى عليها ونهبها حوالي سنة 639هـ/1240م, فأضطر مسلمي غانة للفرار إلى ولاته[7] شمال كومبي صالح[8], وأصبح هذا المكان الجديد مركز للحياة الإسلامية في الصحراء الكبرى, وفي القرن السابع للهجرة, الثالث عشر ميلاد فقدت غانة اسمها, حيث ضمتها دولة شعب المندنجو[9], التي عرفت باسم مالي[10].

---

[1] – شوقي عطا الله الجمل ، إبراهيم عبد الرزاق : المرجع السابق ، ص86 .

[2] – محمود كعت التنبكتي : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، تح هوداس وديلافوس ، باريس ، 1913 ، ص42.

[3] – عبد الرحمن بن عبد الله السعدي : تاريخ السودان ، نشر هوداس ، باريس ،ط5 ، 1983 ، ص16.

[4] – ظاهر جاسم : إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال ، المكتب المصري ، القاهرة ، 2003 ، ص37 .

[5] – نفسه ، ص39 .

[6] – الصوصو إحدى فروع قبائل الفولاني ، للمزيد ينظر عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق ، ص ، 48 .

[7] – مملكة صغيرة خاملة مقارنة مع غيرها ، بها ثلاثة قرى متفرقة مسكونة فقط ، وتبعد عن شمال تمبكت بحوالي 500 ميل ومائة ميل عن عن المحيط . أنظر الوزان حسن : المصدر السابق ، ص 161 .

[8] – شوقي عطا الله الجمل ، إبراهيم عبد الرزاق : نفس المرجع ، ص89 .

[9] – لفظ يطلق على مجموعة قبائل مختلفة مثل ديولا ووخاسونكي وبامبارا ومالنكي يتميزون بالطول والنحافة والسمرة الخفيفة يتميزون بالمهارة في الزراعة يسكنون المنطقة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلنطي للمزيد ينظر عصمت عبد اللطيف دندش: نفس المرجع ،ص-ص ، 44، 45 .

[10] – بدري محمد فهد : الصلات بين العرب وإفريقيا ، دار المناهج ، الأردن ، 2002 ، ص34 .

2 – مملكة مالي (834.628هـ/1430.1230م)

قامت هذه الإمبراطورية بجهود شعب المندنجو, واتسعت على جانبي نهر النيجر شرقا و غربا[1] وشملت مملكة مالي جمهورية مالي الحالية, وأعالي السنغال الشرقي, وشمال غينيا وشمال بوركينا فاسو والجنوب الأقصى من موريتانيا , وجاء في وصف مساحتها على أن طولها مسيرة أربعة أشهر, وعرضها بمسيرة ثلاثة أشهر[2].

تعد مالي من الممالك الواسعة المساحة في السودان الغربي , ويعد شعب الماندينجو المؤسس لها وأهم من أوائل الشعوب المعتنقة للإسلام , ومن يتبع تاريخ هذه المملكة يجد أنها تدين بولائها لغانة وبمرور الزمن كانت السيطرة لمالي التي خلفتها, فكانت بديلة لها في السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى مناجم الذهب , الموجودة بين نهري السنغال والنيجر[3].

لقد كان عام 628هـ/1230م بداية نشأة مملكة مالي وتوسعها, حيث توسعت شرقا وغربا ويعتبر منسا موسى[4] أقوى ملك حكم مالي على الإطلاق ما بين 707- 733هـ/ 1312-1337م[5] , الذي واجه جهوده لصيانة النظام والأمن , وتوطيد علاقته مع جيرانه من الشمال الإفريقي الإفريقي وقد وصفه بن خلدون بأنه "كان رجلا صالحا وملكا عظيما له في العدل أخبار تؤثر عنه"[6] وأيضا ذكر السعدي بأنه "صالح عادل لم يكن فيهم مثله في الصلاح والعدل"[7].

لقد استطاع هذا الرجل السيطرة على مقاليد الأمور, وذاع صيته برحلته المشهورة إلى الحج, التي قام بها عام 713هـ/1324م,وصحب معه الآلاف من رعاياه وكمية كبيرة من الذهب, وزعها على الفقراء أثناء إقامته في القاهرة وفي الحجاز[8].

---

[1] – بدري محمد فهد: المرجع السابق ، ص34 .

[2] – ظاهر جاسم : المرجع السابق ، ص38 .

[3] – نفسه ، ص39 .

[4] – منسا موسى : تولى مقاليد مملكة مالي سنة 712 هـ /1312 م عرفت الإمارة في عهده درجة عالية من التوسع والتوسيع قام برحلته الشهيرة إلى الحج عام 725 هـ / 1325 م ، توفي سنة 738 هـ / 1337 م للمزيد ينظر ، عبد الرحمن بن عبد الله السعدي : المصدر السابق ، ص7 .

[5] – هادي مبروك الدالي : المرجع السابق ، ص56 .

[6] – عبد الرحمن بن خلدون : العبر ، المصدر السابق، ج6 ، ص132

[7] – عبد الرحمن بن عبد الله السعدي : نفس المصدر ، ص18 .

[8] – ظاهر جاسم : نفس المرجع ، ص42 .

وهكذا فقد أصبحت منطقة السودان الغربي عموما تشغل بال مصر والمغرب والبرتغال والمدن الايطالية , محاولين تمتين علاقاتهم التجارية مع مملكة مالي[1] , وعرفت هذه المنطقة في هذه الفترة تأثيرات عربية وإسلامية قوية في النواحي الحياتية المختلفة, بفضل حج ملوكها والرحلات التي كانت بين بلدان العالم الإسلامي.

على الرغم من الرخاء الاقتصادي الذي عاشته هذه الإمبراطورية, واتساع رقعتها وعلاقتها الدبلوماسية, في ظل عدد من الملوك الأقوياء, إلا أن هذا لم يمنع مرورها بمرحلة الضعف, بسبب الخلاف الذي نشب بين ورثة الحكم , فضلا عن سيطرة قبائل الشمالية على أهم المراكز التجارية في البلاد , وهجوم قبائل السنغاي[2] من الشرق[3], تمكنت إحدى الممالك الناشئة وهي مملكة السنغاي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري, من ضم المقاطعات الشرقية, واستغلت فترة ضعف مالي, وأسست إمبراطورية مزدهرة وقوية وهي.

3 – مملكة السنغاي:

وقد قامت هذه الإمبراطورية في النيجر الأوسط, وشعب السنغاي شعب زنجي, وكان الإسلام قد دخل هذه البلاد في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي, واعتنقه ملوكهم[4] .

ومن أهم مدنهم جاو, الواقعة على الضفة اليسرى لنهر النيجر وجني التي اشتهرت كمركز للعلم, وكسوق تجاري.

وقد خضعت السنغاي لسيادة مالي فترة من الزمن, لكنها تحررت بعد ذلك ونمت وازدهرت, ومن أشهر ملوك سنغاي, أسكيا محمد الكبير (1493/1528م/899/935هـ)[5], وقد ذهب للحج في صفر 902هـ/1496م, وقد نجح في مد سلطانه إلى كانو, واشتهر بتشجيعة للعلماء, وقد ذاع عهده شهرة تمبكتو ,ومعهد سنكري ,و كذلك معاهد العلم التي افتتحت في جني و جاو[6].

---

[1] – ظاهر جاسم : المرجع السابق ، ص42 .

[2] – واطلق الاسم على الجزء الممتد حول نهر النيجر وعلى الشعب الذي يسكن هذه المنطقة والتي تأسست خلال القرن السابع للميلاد على يد زعيم بربري ليبي يدعى زا الأيمن ، للمزيد ينظر .عبد الرحمان بن عبد الله السعدي : المصدر السابق ، ص2 .

[3] – بدري محمد فهد: المرجع السابق ، ص42 .

[4] – شوقي عطا الله الجمل ، إبراهيم عبد الرزاق : المرجع السابق ، ص92 .

[5] – هو من عشيرة نوري المنحدرة من التكرور وأصلهم من صنهاجة ، كان عسكريا وإداريا مقتدرا ، لقب بالإمام المنتصر والخليفة العادل والسلطان الظافر . للمزيد ينظر أحمد الشكري :المرجع السابق ، ص306 .

[6] – شوقي عطا الله الجمل ، إبراهيم عبد الرزاق : نفس المرجع ، ص93 .

ومن أبرز رجال العلم الذين قربهم إليه ,العالم محمد المغيلي التلمساني (909 هـ-1503 م) وهو من العلماء المغاربة الذين برزو في السودان الغربي في القرن 9هـ/15م.

ونلاحظ أن ملوك السنغاي اشتهروا بتشجيعهم للعلم والعلماء , وحرصهم على نشر الإسلام بين أتباعهم و ذلك سهل ارتباطهم وعلاقاتهم مع بلدان المغرب والمشرق الإسلامي[1] .

وازدهر الحركة التجارية ,ونشطت المدن في ذلك ,وكانت سنغاي من أبرز ممالك السودان الغربي تطورا وازدهارا . سقطت مملكة السنغاي في عام 1000هـ/1591م,حيث غزاها الجيش الم المغربي بقيادة المنصور أحمد الذهبي[2].

4- كانم و البرنو:

ومن إمبراطوريات السودان الغربي كانم و البرنو ,وقد شملت إمبراطورية كانم في أوج مجدها رقعة واسعة في غرب إفريقيا ,تمتد من نهر النيجر غربا إلى النيل شرقا[3].

وقد استمرت إمبراطورية كانم قائمة فترة امتدت من القرن الثاني إلى السابع الهجري /الثامن والثالث عشر الميلادي , وبدأ الضعف يدب في أوصالها , فأصبحت جزءا من البرنو بعد أن كانت خاضعة لها , وقد اعتنق حكام كانم الإسلام منذ أوائل القرن 5هـ/ 11م ، مما أكسب دولتهم أهمية كبرى .

أما إمبراطورية البرنو فقد ازدهرت في القرن العاشر الهجري ، السادس عشر ميلادي واشتهر من حكامها ماي إدريس علومه (978 - 1010 هـ/1570- 1602) وقد بذل جهداً كبيراً في تعمير المساجد في بلاده ، ودعم الروح والمبادئ الإسلامية فيها . وقد ظلت مملكة البرنو قائمة حتى هاجمها الفولة[4] وانتزعوا أقاليم الهوسا ، التي كانت تابعة لهم وأخضعوها لدولتهم[5]، وساهم ظهور هذه الممالك الممالك بالسودان الغربي في تنشيط التجارة الصحراوية وتنظيمها ، خاصة مع بلدان المغرب الإسلامي ، في ضل وجود حكام أقوياء ربطتهم علاقات جيدة مع حكام العالم الإسلامي.

---

[1] - شوقي عطا الله الجمل ، إبراهيم عبد الرزاق، المرجع السابق ، ص95 .

[2] - ظاهر جاسم : المرجع السابق ، ص49 .

[3] - شوقي عطا الله الجمل ، إبراهيم عبد الرزاق : نفس المرجع ، ص95 .

[4] - يعرفون حاليا بقبائل التكرور أوطانهم الأولى السنغال الأوسط تأثروا بدعاة البربر واختلطت وتزاوجت معهم . للمزيد ينظر البكري أبو عبيد الله : المصدر السابق ،ص172 .

[5] - شوقي عطا الله الجمل ، إبراهيم عبد الرزاق : نفس المرجع ، ص95 .

الفصل الثاني : العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي 5- 10هـ / 11- 16م

أولا : السلع المتبادلة

1 – صادرات السودان الغربي نحو المغرب الأوسط

2 - صادرات المغرب الأوسط نحو السودان الغربي

ثانيا : وسائل التبادل

1- المقايضة

2 – المعاملات النقدية

3- الصكوك

ثالثا : المسالك والمراكز التجارية

1- المسالك التجارية

2- المراكز التجارية

رابعا : نظام سير القوافل ومصاعب الصحراء

أولا : السلع المتبادلة .

كان من الطبيعي تأثير البيئة الجغرافية على طبيعة التبادل التجاري بين المغرب الأوسط والسودان الغربي فالسلع التي تجلب إلى السودان الغربي غير السلع التي تجلب منه ومن هنا قسمنا السلع المتبادلة بين السودان الغربي والمغرب الأوسط إلى قسمين هما.

1 – صادرات السودان الغربي نحو المغرب الأوسط :

ونقصد بها السلع التي تحملها قوافل التجار إلى المغرب الأوسط ومن أهمها :

أ– الذهب : يعتبر الذهب السلعة الأولى التي جذبت إليها التجار ، حيث أصبح محور تجارة بلاد السودان عبر الصحراء مع بلاد المغرب[1] ، وقد استخرج الذهب في بلاد السودان الغربي منذ الألفية الأولى قبل الميلاد وتوسع في الإنتاج حوالي القرن 2هـ/8م مع تطور الاتصالات التجارية مع مختلف الأقطار[2] .

أما عن مواطن تواجد الذهب ببلاد السودان فيتواجد في ونقارة التي كانت لها علاقة تجارية مهمة مع بلاد المغرب الأوسط حيث كان التبر متوفر بها حتى إذا تم تجميعه اشتراه أهل وارجلان[3] ومن ثم يأخذ عدة مسارات نحو مصر ، ما بين النهرين وإسبانيا وغيرهما[4].

وكان الذهب متوفرا بكثرة في أسواق سنغاي[5]، وقد ذكر صاحب الاستبصار أن معدن الذهب ترابه أحمر ويستخرج كما يستخرج الحديد والرصاص والنحاس والفضة[6] ، وهناك نوع يوجد في جميع فصول السنة في أماكن معروفة على ضفاف مجاري النيل[7] ، توجد أصول الذهب كالحجارة ، وكلاهما يسمى تبرا والأول أفحل في العيار وأفضل في القيمة[8] .

---

[1] – الهادي المبروك الدالي : المرجع السابق ، ص281 .

[2] – هوبكنز.أ.ج : التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية ، تر: احمد فؤاد بلبع ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1998 ، ص85 .

[3] – الإدريسي أبو عبد الله : المرجع السابق ، ص39 .

[4] – لمبارد لويس : الإسلام في مجده الأول ، تر : إسماعيل العربي ، ط1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1997 ، ص175 .

[5] – الهادي المبروك الدالي : نفس المرجع ، ص282 .

[6] – مجهول المؤلف : الاستبصار ، المرجع السابق ، ص 219 .

[7] – وهو نهر النيجر ، ينظر الهادي المبروك الدالي : نفس المرجع ، ص 320 .

[8] – ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : حمزة أحمد عباس ، المجمع الثقافي ، الإمارات ، 2002 ،ج1 ، ص 118.

وذكر ابن حوقل أن الذهب ينبت ببلاد غانة في الرمل كما ينبت الجزر ويُقطف حين بزوغ الشمس[1].

وهذه الروايات تعبر عن كثرة الذهب في بلاد السودان الغربي وخاصة في غانة التي تسمى أرض الذهب[2] والدليل على ذلك أن منسا موسى (1313 -1338) أخذ من بلده ثمانين حملا من التبر في كل حمل ثلاثة قناطر ، ويتولى حمل التبر العبيد في أوطانهم فقط ، أما في السفر البعيد فيحمل على المطايا[3] .

فمن خلال ما أشار إليه الإدريسي أن بلاد المغرب عند وصول الذهب المجلوب من أرض السودان يؤخذ ويزبق ثم يسبك الخشن منه[4] ، ثم يضرب وذلك لوجود إشارات بوجود مسبكه في بلاد المغرب الأوسط (وارجلان) ، دون أن ننسى حظ النسوة منه لاتخاذ الذهب كحلي للزينة والافتخار به وتكديسه .

ب – تجارة العبيد :

يعتبر العبيد أهم السلع التجارية الهامة منذ أقدم العصور[5] ، ومحل اهتمام التجار والملوك والميسورين ، فقد كانوا قوة منتجة لا يمكن الاستغناء عنها في معظم المجالات المرتبطة بالحياة الاجتماعية[6]، وقد وجد نوعان من العبيد منهم عبيد ملك الأسقيا وهؤلاء أخضعهم الأسقيا الحاج محمد (1493 -1528) عند انتصاره على سني علي[7] (1465 – 1492) وهي أربعة وعشرون قبيلة وكل قبيلة مكلفة بعمل معين ، وعبيد القرى القرى الفلاحية الذين يتمتعون بنوع من الحرية وقد يعتق العبد منهم بحسب أمانته أو ورعه[8].

---

[1] – ابن حوقل : المصدر السابق ، ج2 ، ص87 .

[2] – نبيلة حسن محمد : في تاريخ إفريقيا الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2010 ، ص148 .

[3] – عبد الرحمن ابن خلدون : العبر ، المصدر السابق ، ج6 ، ص268 .

[4] – صالح بن قربة : المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد ، (د ط) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ص ص ، 48 ، 49 .

[5] – أمطير سعد غيث : التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي فيما بين القرنين 14 و 16م ، ط1 ، دار الرواد ، بنغازي ، ليبيا ، 1937، ص 144 .

[6]– بشار قويدر : القوافل التجارية المغاربية (طبيعة التجارة وآثارها) ، مجلة طريق القوافل ، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ ، مطبعة عمار قرفي ، الجزائر ، 2001 ، ص15 .

[7] – سني علي : ابن الملك ديا أسيباي اسمه علي كولن هرب من البلاط الملكي ولقب نفسه بـ " شي كولن" وتعني خليفة الملك ، سيطر على مالي مالي وأعاد لها قوتها وكان ملكا ظالما فاسقا متعديا ، حكم 27 سنة ، توفي سنة 897هـ / 1492م للمزيد ينظر محمود كعت : تاريخ الفتاش ، المصدر السابق ، ص 44 .

[8] – عبد الحميد الجنيدي : مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10هـ /16م ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، جامعة الجزائر ، (غير منشورة) ، 2009 ، ص45 .

ولعله من الصعب تقدير حجم هذه التجارة فقد كانت الطرق العابرة للصحراء الكبرى في القرون الوسطى تنقل أعدادا من الرقيق بلغت حوالي المليونين[1].

أما سعر العبيد فقد بلغ في فترة حكم الأسقيا داود (1549– 1582) عشرة دنانير للعبد الواحد[2].

ويتم الحصول على العبيد بطرق مختلفة منها :

– الحروب الدائرة بين حكام الممالك وزعماء القبائل

– استيلاء أقوياء بعض القبائل على السكان الضعفاء وبيعهم في الأسواق .

– عن طريق الصيد وكان ذلك ضد القبائل الغير المستقرة[3] .

ولقد كان لبلاد المغرب النصيب الأوفر من هذه التجارة وهذا من خلال بعض الإشارات ولوجود مثل هذه الفئات ببلاد المغرب ومن ذلك ما ذكره الإصطخري من خلال قوله " الخدم والسود الذين يباعون في بلاد الإسلام منهم[4] " وبما أن وارجلان هي بوابة الصحراء فقد مثلت محطة مهمة في استقبال وفود الخدم القادمين من بلاد السودان[5]، وقد كان العبيد عند استقدامهم يبقون فيها عدة أشهر لكي يستعيدوا لياقتهم ونشاطهم البدني ، كما أنهم يتعلمون فيها الإسلام الذي يصبح ديانتهم[6].

وهو ما جعل منها تجارة نشيطة سيطرت على جانب كبير من تجارة القوافل لأرباحها حتى أن بعضهم اتخذ من العبيد تجارة له .

وتتحكم في تجارة العبيد الكفاءة والمهارة واللون والعرق والجنس الذي يلعب دوره في الأسعار[7] ، فإذا كان الخادم أو الجارية من دون صناعة فالسعر بألف دينار أو أكثر[8] أما الخادمة فعند البيع أو الشراء يحتاط

[1] – هوبكنز .أ.ج : المرجع السابق ، ص165 .

[2] – عبد الحميد الجنيدي : المرجع السابق ، ص69 .

[3] – حسين جاجوا : دور غدامس التجاري مابين طرابلس والسودان الغربي والأوسط خلال القرن التاسع عشر ، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة ، (غير منشورة) جامعة الجزائر ، 1981 ، ص99 .

[4] – الإصطخري أبو القاسم محمد ابن إبراهيم : المرجع السابق ، ص73 .

[5] – ابن سعيد المغربي : المرجع السابق ، ص126 .

[6]- Jean Lethielliux : Ouargla cite saharienne, librairie orientaliste, Paulgenthner S.A, Paris , 1963, p 161 .

[7] – جاك ريسلر : الحضارة العربية ، تر. خليل أحمد خليل ، ط1 ، منشورات عويدات ، باريس ، 1993 ، ص65.

[8] – أبو القاسم محمد ابن إبراهيم الإصطخري : المرجع السابق ، ص37 .

الكثير من المعايب التي تؤثر في الثمن[1]، والجارية عند بيعها لا يظهرونها بمظهرها الطبيعي وإنما بزينتها وإبراز جمالها لأن في ذلك زيادة في الثمن والربح [2]، بالإضافة إلى أن هذه التجارة كانت مصدرا مهما لجباية الضرائب الضرائب التي تفرض عليها من قبل القبائل والحواضر التي تمر بها ، حتى وصولها مركز المدينة إذ أن ضريبة العبيد كانت من الحظوظ الوافرة لسدراته[3].

ج– العاج :

لقد دخلت تجارة العاج عبر قوافل السودان الغربي منذ عصر الفينيقيين وكان العاج متوفرا بكميات كبيرة جعلت المواطنين يصنعون منه أواني الزينة والشرب وكان من الكماليات المرغوب فيها بالشمال الإفريقي ويتم تصديره للمغرب الأوسط ومنها إلى أوربا وبذلك يعتبر من أهم صادرات السودان الغربي زمن دولة سنغاي[4].

د– التوابل (البهارات):

كانت هذه المواد تأتي إلى بلاد السودان من مناطق الغابات في الجنوب ، وكان التجار المحليون يذهبون إلى هناك لجلبها ، وكانت أصناف التوابل العديدة لاتزال تشكل في تلك الفترة مادة رفوف الصيدليات في كل أنحاء العالم وتتكون منها جميع العقاقير التي تحتويها وصفات الأطباء ومؤلفاتهم ، وكانت أثمانها مرتفعة جداً ، وكان التجار الذين يقصدون السودان يحملون الكثير منها ويحققون من ورائها أرباحا طائلة[5].

هـ – الكتب :

كانت الكتب من الصادرات الهامة حيث يجلبها التجار من بلدان المغرب الأوسط ، أثمانها مرتفعة خاصة في عهد دولة السنغاي ، حيث تزيد عن سعرها في المغرب بضعف ونصف الضعف تقريبا نتيجة لإقبال الحكام عليها [6]، ولقد كان يشتهر بها تجار منطقة توات[7].

---

[1] – أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها ، دار صادر ، لبنان ، 1999 ,ط 1 ، ص ص50 – 51 .

[2] – عبده بدوي : السود والحضارة العربية ، (د ط) ، دار قباء للطباعة ، مصر ، 2001 ، ص120 .

[3]– Jean Lethieiulliux : OP . Cit , P168 .

[4] – محمود كعت التنبكتي : المصدر السابق ، ص149 .

[5] – عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين (1492 – 1591) ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، 1977 ،ص 225 .

[6] – عبد القادر زبادية : المرجع السابق ، ص36 .

[7] – توات تقع في الجنوب الغربي من الجزائر تظم ثلاث مناطق أساسية تينجورارين ، توات الوسطى ، تيدكلت ،وتوات عند السعدي تعني لمرض أصاب منسا موسى أو لإسم لإحدى القبائل أو اسم لفاكهة تدفع لملك الموحدين بدل الظرائب ، ومنها من سماها توات لأنها تواتي للعبادة لذا

و– سلع أخرى :

كانت السياط من السلع التي يصدرها تجار السودان الغربي ، إلى الشمال الإفريقي ، وتعرف باسم السربافات . تصنع في بلاد التكرور ، من جلد حيوان يصطادونه من النهر يسمى قفو ، وقد وجدت هذه السلعة سوقا رائجا ، إذ يحتاج إليها في ركوب الإبل ، كما كان السودان يصدر الأبنوس والعسل والصمغ وحبوب الكولا وريش النعام وبيضه الذي يستخدم في تركيب بعض الأدوية وأدوات الزينة ، كما كان الشب من السلع التي يصدرها السودان الغربي ، وقد اشتهرت به كوار[1] ، كما وجد بأرض السودان الفول السوداني الذي كان يقايض به الملح القادم من الشمال ، وقد اشتهر هذا النبات في كل أرض السودان إلى درجة أنه تسمت باسمه نظرا لتخصصه في إنتاجه[2].

إن ثروات بلاد السودان الغربي شكلت بالفعل سلعا مهمة للتجار المغاربة وهو ما أسهم في توطيد أواصر التعاون والتكامل بينهما وأعطى الحافز القوي لامتدادها لعقود طويلة وأزمان عديدة .

2 – صادرات المغرب الأوسط نحو السودان الغربي :

جلبت إلى السودان الغربي أنواع متعددة من السلع ، أتى جزء منها من حوض البحر المتوسط ، وأتى جزء آخر من داخل الصحراء ، وعلى رأس السلع الصحراوية التي دخلت السودان الملح .

أ – الملح :

كان الملح يمثل سلعة مهمة في تجارة الصحراء منذ زمن طويل ، وذلك لعدم توفره بكميات كبيرة تكفي لسد متطلبات السكان داخل السودان الغربي[3] ، وارتبط الملح ارتباطا وثيقا بالذهب ولكن هذا الارتباط لا يعني وجودهما في مكان واحد ، بل يرجع لكون الملح السلعة التي يتلهف عليها السودانيون المنتجون للذهب فيدفعونه للحصول على الملح[4] ، حيث ذكر ابن بطوطة ا ن أهل بلاد السودان الغربي ، يتصارفون بالملح كما

قصدها الكثير من العلماء . ينظر مبارك جعفري : علماء منطقة توات وتأثيرهم في السودان الغربي خلال القرن 12هـ / 18م ، دورية كان التاريخية ، ع16 ، سبتمبر 2012 ، ص90 .

[1] – الهادي المبروك الدالي : المرجع السابق ، ص323 .

[2] – نور الدين شعباني : المرجع السابق ، ص78 .

[3] – الهادي المبروك الدالي : نفس المرجع ، ص324 .

[4] – حسن ألصادقي : أضواء على ممالك غرب إفريقيا وعلاقتها ببلاد المغرب معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط ، (د ت) ، ص04 .

يتصارف بالذهب والفضة[1]، وذلك لأنه يُستخدم لتجفيف الطعام والمحافظة عليه فضلا عن إعطائه مذاقا خاصا

لقد كانت الصحراء المصدر الرئيسي للملح وأشهر المناطق التي ساهمت في إنتاجه.

مملحة تاوديني : تقع جنوب تغازة وشمال غرب تمبكتو ، يأتي الملح إلى تمبكت محملا على الجمال في صفائح تزن الواحدة منها **30** كغ ، وسعرها يتراوح من 15إلى 35 فرنك ، حسب الجودة والحجم والندرة[2].

مملحة تغازة : تبعد مسيرة 20 يوم عن تمبكت[3]، ومعدن الملح فيها يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام ، يحمل الجمل منها لوحين[4]، وذكر الوزان بأن هناك مستخدمون لاستخراج الملح من أصل أجنبي يأتون مع القوافل ويقيمون هنا كمنجمين يستخرجون الملح ويحتفظون به حتى تأتي قافلة فتشتريه ، ويختلف سعر الملح باختلاف المكان الذي تباع فيه[5].

ب – التمور و القمح :

كان إنتاج التمر في بلاد السودان الغربي لا يفي حاجيات السكان لذا كانت تستورد منه كميات كبيرة من الواحات الصحراوية خاصة ، فكانت ترد من ورجلان وبلاد الزاب[6] ، وقد أخذت شهرة كبيرة في أسواقها وعند قلة ورود القوافل المحملة بالتمور أو كان الإنتاج في سنة من السنوات ضعيفا ، فإن ذلك يؤدي حتماً إلى ندرته وغلائه في أسواق بلاد السودان الغربي وربما بلغ الأمر لبيعه بالحبات[7].

كان المغرب الأوسط يصدر القمح الذي لم يكن يزرعه السودانيون[8] ، والذي كانت تتركز زراعته حول تلمسان ، وأسعاره غالية جدا بسبب صعوبة نقله [9] ، وقد بلغ سعر القنطار منه في أودغست ستة مثاقيل ذهباً

[1] – محمد عبد الله بن بطوطة : رحلة بن بطوطة في غرائب لأمصار وعجائب الأسفار ، ط1 ، دار الفكر العربي للطباعة ، لبنان ، 2003 ، ص379 .

[2] – الهادي المبروك الدالي : المرجع السابق ، ص250 .

[3] – الحسن بن محمد الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص108 .

[4] – محمد عبد الله بن بطوطة : المرجع السابق ، ص674 .

[5] – الحسن بن محمد الوزان : نفس المصدر ، ج2 ، ص108

[6] – عبد القادر زبادية : المرجع السابق ، ص 177 .

[7] – إلياس بن عمر حاج عيسى : مدينة ورجلان (دراسة في النشاط الاقتصادي والحياة الفكرية في الفترة (4 – 10هـ / 10 –16 م) ، مذكرة مذكرة ماجستير غير منشورة جامعة الجزائر ، 2008 /2009 ، ص91 .

[8] – نور الدين شعباني : المرجع السابق ، ص124 .

[9] – أحمد المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تح وتع : إحسان عباس ، بيروت ، 1968 ،ج7، ص314 .

ذهباً في القرن السادس الهجري ، وسعره في السودان الغربي يزيد عن ذلك ، وقد كان يشكل غذاءً للأسرِ الموسرة فقط[1].

جـ – الخيول :

يستورد سكان السودان الغربي الخيول الأصيلة من بلاد المغرب ، وهي ترافق القوافل التجارية[2]، خاصة من المغرب الأقصى ، وعندما تصل إلى السودان الغربي بعد عشرة أيام أو اثني عشر يوما تعرض على الملك ليأخذ ويختار منها العدد الذي يريده ويدفع فيه ثمنا مناسبا[3]، والحصان يساوي سعره أكثر من العبد[4] ، حتى أن الرحالة ابن بطوطة لم يستطع شراء حصان لترحاله من مالي ، إذ كان عليه أن يسدد مبلغا قدره مئة مثقال من الذهب ثمنا للحصان[5].

وامتلاك الخيل كان ينم عن مظهر من مظاهر الثراء ، وكان تجار الخيل يحصلون على أرباح وفيرة من جراء هذه التجارة[6].

دـ العطور : تكون العطور نسبة هامة من المواد التي تصدر إلى السودان الغربي ويحمل التجار إليهم العديد من أنواعها ، فيجنون من ورائها أرباحا كبيرة ويقبل الناس عليها إقبالا كبيرا[7]، وكانت تستهلك بكثرة في في جميع الجهات خاصة بين الطبقات الموسرة والرسمية[8] ، وكانت تصنع من نبات الخزامى الذي ينبت بكثرة في في المغرب الأوسط أو يجلب من أوربا[9] ، وقد مثل التجار المغاربة دور الوسيط في هذه التجارة .

هـ – النحاس : كان النحاس قليلا ببلاد السودان الغربي ويستخرج من منجم وحيد يقع قرب تكدا[10] وقد ساهم التجار المغاربة في توفير تلك المادة وكان جزء منها يصدر من جنوب المغرب الأوسط ، لتزويد بعض الحرفيين الذين يشتغلون بتصنيع النحاس في سنغاي رغم أن عددهم قليل بما يحتاجونه من مادة أولية ومما كان

---

[1] – لطيفة بشاري : التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر هجري ، والثالث عشر الميلادي والسادس والسادس عشر ، رسالة ماجستير مخطوطة ، جامعة الجزائر ، الجزائر ، 1986 /1987 ، ص241.

[2] – إسماعيل العربي : تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ، ص180 .

[3] – الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص ص 166 ، 167 .

[4] – عبد الحميد الجنيدي : المرجع السابق ، ص67 .

[5] – بن بطوطة : المصدر السابق ، ص ص691 – 699 .

[6] – الهادي المبروك الدالي : المرجع السابق ، ص333 .

[7] – عبد القادر زبادية : المرجع السابق ، ص 34 .

[8] – الهادي المبروك الدالي : نفس المرجع ، ص331 .

[9] – لطيفة بشاري : المرجع السابق ، ص256 .

[10] – بن بطوطة : نفس المصدر ، ص 252 .

يصدر من أوانيه قسم كان يستعمل للزينة كالأساور والأقراط وآخر في شكل أواني منزلية جيدة الصنع وجزء آخر في شكل لوازم للخيل كاللجام والسروج[1].

و– سلع أخرى : كان يرد إلى السودان الغربي سلع أخرى مثل : الصوف ، الحرير وجميع أنواع الكتان والشاش والمناديل الحريرية والسجاد ، الكمثري والريحان والعنبر والورود الجافة والجاوي والتوابل والبخور والمسك الشب والقصدير وأكواب النحاس والمرجان الأسود ، الحلي للنساء[2]، إضافة إلى ذلك ترد منتجات أخرى تشمل الحبوب والمصنوعات المعدنية والجلدية وصنوفا من أنواع الزجاج والأصداف والخواتم والقطران والأخشاب[3].

ثانيا : وسائل التبادل .

كان التعامل بين التجار يتم بطرق مختلفة نذكر أبرزها :

1– المقايضة : كانت المقايضة وسيلة التعامل الواسعة الانتشار بين التجار العرب الوافدين وسكان السودان الغربي ، والتي تعتمد على الاتفاق بين الطرفين فيما يعرضانه من سلع[4] حيث يترك التجار أكواما من من الملح والبضائع الخاصة بالتجارة التي كانت تنقل في قوافل عبر الصحراء ، ثم ينسحبون إلى مسافة آمنة تعادل في تلك الأيام مرمى سهم يطلق أو رمح يرمي به , ثم يضع تجار الغابة المظلمة كومات صغيرة من غبار الذهب للمبادلة بها[5].

ويذكر ياقوت الحموي أنهم إذا وصلوا ضربوا طبولا تسمع في الأفق ولا يدعون تاجرا يراهم أبدا , فإذا علم التجار أنهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ما صحِبهم من البضائع[6] لأنهم كانوا يخافون الغريب خاصة من معرفة أماكن المناجم وهو ما يعرف بالتجارة الصامتة لأنها تدور بدون كلام ودون أن يرى البائع زبونه[7].

[1] – عبد القادر زبادية : نفس المرجع ، ص 32 .

[2] – Marcel Emerite , Travaux de l'Institut de Recherches Sahariennes,T11, Alger , 1954.p31. 1954.p31.

[2] – أمين توفيق الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، ج2 ، الدار العربية للكتاب ، 1997 ، ص ص 188 ، 189 .

[4] – أمطير سعد غيث :المرجع السابق ، ص145 .

[5] – مارغريت ميد : الشعوب والبلدان ، تر: غادة السمات ، مكتبة الأطلس ، دمشق ، 1959 ، ص134 .

[6] – ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج5 ، ص ص 12 ، 13 .

[7] – عطية الفيتوري : المرجع السابق ، ص237 .

ومن الطبيعي أن التجار يأتون من أجل الذهب ولكن إذا ما قبضوا على أي سوداني يحاولون معرفة مكان الذهب , فيضربونه حتى الموت من أجل ذلك , ولا يعطي سر قبيلته , وفي هذه الحالة يوقف السودانيون عملية التجارة لسنوات أحيانا , ثم يعيدونها عندما يحتاجون للملح[1].

ومع تغلغل المؤثرات العربية الإسلامية بالمنطقة أدى إلى تلاشي هذا النمط من التعامل واستمر العمل بالمبادلة أو المقايضة العينية أي استبدال سلعة بسلعة[2].

ولم تقتصر المبادلة على مادة الملح فقط , ففي المناطق التي يقل فيها الملح أو ينعدم يتم التبادل بالمواد المحلية[3] .

2 – المعاملات النقدية :

أ– الودع : هي عبارة عن فصيلة من أصداف بحار المناطق الحارة وتسمى أيضا الكوري[4] , وتختلف قيمتها من وقت إلى آخر , وتجلب هذه العملة من الهند عن طريق التجار المغاربة والمصريين[5] ومن الأندلس والمغرب الأقصى ومن بلاد فارس[6] , وكانت الودع تستعمل لشراء الأشياء التافهة , تساوي أربعمائة منها مثقالا واحدا من الذهب[7] وكانت من العملات الكثيرة التداول في السودان الغربي[8].

ب– النقود الذهبية : أشار المسعودي خلال المنتصف القرن الرابع للهجرة إلى أن الدنانير كانت تضرب في سجلماسة من الذهب الذي يجلب من غانا , ومنها دخلت العملة إلى بلاد السودان الغربي , ولكن بظهور دولة المرابطين ازدهرت العملة التي كانت تضرب في العديد من المدن كسجلماسة وأغمات ومراكش وتلمسان وفاس وسبته[9], ولقد عثر الأثريون على دينار ذهبي زياني ضرب في تلمسان بلغ وزنه 4.75 غ , وإن أجزاء الدينار هي النصف والربع والثمن[10].

---

[1] – روسيل وورين هاو : تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا ، تر : عبد الوهاب محمد الزنقاني ، دار غريب ، القاهرة ، 2009 ، ص65 .

[2] – أمطير سعد غيث : المرجع السابق ، ص146 .

[3] – الهادي المبروك الدالي : المرجع السابق ، ص239 .

[4] – أمطير سعد غيث :نفس المرجع ، ص150 .

[5] – حسين جاجوا :المرجع السابق ، ص118 .

[6] – الهادي المبروك الدالي :نفس المرجع ، ص340 .

[7] – الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص167 .

[8] – الهادي المبروك الدالي : نفس المرجع ، ص340 .

[9] – نور الدين شعباني : المرجع السابق ، ص127 .

[10] – لطيفة بشاري : المرجع السابق . ص288 .

ج– النقود الفضية : كانت العملة الفضية تستخدم إلى جانب العملة الذهبية في المغرب الأوسط ووحدتها الدرهم وكان وزنه حوالي غرام ونصف وأجزاؤه النصف والربع والثمن , ويلاحظ أن الدرهم لا يحافظ على الاستقرار النسبي الذي عرفه الدينار حتى القرن العاشر هجري بل أن قيمته كثيرا ما كانت تتغير بسبب النقص في الفضة وكانت قيمته تقدر بالنسبة للدينار بواحد دينار يساوي مائة وعشرون درهم[1].

وكانت هناك عملة نحاسية حمراء رقيقة وغليظة ذات قيمة منخفضة جدا .

3– الصكوك :

ترك لنا ابن حوقل عدة نصوص وشهادات تثبت استعمال تجار الصحراء الصكوك في معاملاتهم التجارية وخاصة في مدينة أودغشت التي ذكرنا أنها من أهم وأول المحطات التجارية السودانية فهو يذكر بأنه رأى صكا كتب بدين على أحد التجار المغاربة يدعى محمد ابن أبي سعدون ، وشهد عليه بالعدول باثنين وأربعين ألف دينار[2] وهي الحادثة التي يشير إلى أنه لم يسمع ولم يشاهد مثلها في المشرق إلى درجة أنه حكاها حكاها بالعراق وفارس وخرسان فاستطرفت[3] وهو دليل على إنفراد تجار الصحراء باستعمالها لصعوبة الطريق الصحراوي وانعدام الأمن فيها مما جعل استعمال الصكوك من بعض التجار أكثر أمناً وحفاظا على أموالهم[4].

ثالثا : المسالك والمراكز التجارية

1– المسالك التجارية :

مع بداية استقرار أحوال المغرب الأوسط ، بدأ الاتصال الطبيعي المنتظم عبر الصحراء وكلما زاد الاستقرار في الشمال ، تعمقت الصلات ، وازدادت حركة القوافل التجارية .

وكان لهذه القوافل التجارية مسالك وطرق محددة يمكن تحديدها في ما يلي :

المسلك الأول : ينطلق من تيهرت ثم يمر بسجلماسة ومنها إلى أودغست حتى يصل إلى مملكة غانة يستغرق المسير في هذا الطريق حوالي عشرة أيام وتعتبر مدينة أوزكا[5] مرحلة متوسطة بين تيهرت وسجلماسة[6]،

---

[1] – لطيفة بشاري : المرجع السابق ، ص231 .

[2] – ابن حوقل: المصدر السابق ، ج2 ، ص65 .

[3] – نفسه : ص92 .

[4]– Le VTZ ion Nehemia : IBN-hawqal: the cheque,and awdaghost , in the journal of African history ,Edited by :J.P Faber and J.R Gray and Oliver. Cambridge University hirss, 1968 , volume IX , w2 , p227 .

[5] – أوزكا : هي مدينة أزقى أو أزكى لدى الجغرافيين العرب الذين جاءوا بعد اليعقوبي ،انظر: إبراهيم بكير بحاز : الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية (160 – 296 هـ /777 – 909 م) ، ط1 ، مطبعة لافوميك ، 1985 ، ص 211 .

وسجلماسة[1]، هذه الأخيرة عبارة عن نقطة انطلاق لعدد كبير من القوافل التي تعبر الصحراء إلى بلاد السودان لذلك يعتبرها البكري مدخلا لبلاد غانا[2].

وعند مغادرتها من سجلماسة نحو الجنوب تتوغل في الصحراء مسيرة خمسين يوما فتنزل عند قوم يطلق عليهم أنبيّة ؛ وهم بربر من قبيلة صنهاجة الملثمين ، وهي دولة عظيمة تتوسط سجلماسة وغانا ، وبعد اجتياز القافلة لهذه الأخيرة تصل إلى بلد يقال له غسط ، وهو واد واسع كثير الزرع عامر بالناس وهو يغزو بلاد السودان.

أما الطريق الثانية بين سجلماسة و أودغست فقد أشار إليه المسعودي فذكر أن طريق تافلالت – سجلماسة – بلاد السودان ، كان يمر بتاغازا ، ويبدو هذا المكان ذو أهمية وذلك لتوفر مناجم الملح فيه ،فكان لابد على التجار أن يمروا به في طريقهم إلى غانا ، ولما كانت أودغست من اقرب البلاد إلى غانا ظهر لدى سكانها الترف والغنى[3].

المسلك الثاني : ينطلق من تيهرت إلى ورجلان ويمر بتادمكت ليصل إلى كوكو "انظر الملحق رقم 2".

وهناك طريقين على الأقل يربطان تيهرت بورجلان ، فالأول يمر عبر المسيلة[4] التي يفصلها عن تيهرت مسيرة ثمانية أيام[5]، ومن تيهرت إلى ورجلان اثنا عشرة مرحلة[6].

أما المسار الثاني فيأخذ طريقه نحو تلمسان التي كانت مدينة تجارية ثرية[7]، إذ يبدأ الطريق بنحو مسيرة مسيرة خمسة أيام ومنها إلى تلمسان مرحلتان[8]، ولم تمتد المسافة نحو ورجلان إذ أن كل ما ذكر أن الطريق يخرج يخرج نحو قلعة ابن الجاهل جنوب تلمسان ومنها إلى مدينة يتزيل[9] ، لكن يبدو أن هذا الطريق لم يلقى

---

[1] – أحمد بن يعقوب اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، (د ط) ، دار صادر ، بيروت ، (د ت) ، ص104 .

[2] – ابن قنفذ القسنطيني : المصدر السابق ، ج5 ، ص218 .

[3] – جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، (د ط) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 249 .

[4] – الإدريسي أبو عبد الله : المصدر السابق ، ج1 ، ص 296 .

[5] – المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2003 ، ص197 .

[6] – الإدريسي أبو عبد الله : نفس المصدر ، ج1 ، ص 296 .

[7] – جورج مارسي : تلمسان ، (د ط) ، دار التل للنشر ، الجزائر ، 2004 ، ص97 .

[8] – المقدسي : نفس المصدر، ص197 .

[9] – وهي أول الصحراء ومنها يسافر إلى مدينة سجلماسة وإلى وارجلان ، أنظر بن خلدون : العبر ، المصدر السابق ، ج7 ، ص68 .

الاهتمام اللازم لسبب ضعف الحركة التجارية عبره ، والمسافة بين تلمسان وبلاد السودان تبلغ مسيرة نحو الشهرين[1] .

وتعد ورجلان المركز الرئيسي في هذه المسالك للتوجه نحو السودان حيث بلاد كوكو وقد احتفظت وارجلان بهذا الدور حتى القرن التاسع هجري[2]، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون : "ولهذا البلد في هذا العهد العهد باب لولوج السفر .. إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان ، يسلكها التجار الداخلون إليها بالبضائع ..."[3]، أي أن وارجلان هي المنفذ والمعبر إلى بلاد السودان أين يتم تبادل السلع بينهما وبين المغاربة وهو من أهم المسالك والمعابر إليها ، أي أن القوافل تنطلق من هذه الأخيرة موغلة في القفار والمغارات عابرة الصحراء الكبرى مسيرة خمسين يوما ، حتى تصل مدينة تادمكت ومن هذه الأخيرة تتجه جنوبا .

وبعد مسيرة تسعة أيام تدخل القوافل التيهرتية مدينة كوكو[4] بعد أن مرت بوارجلان أهم مركز تجاري[5].

تجاري[5].

المسلك الثالث : يبدأ من تلمسان مرورا بغرداية وتوات[6] فقد جرت العادة أن تخرج في كل عام قافلتان كبيرتان تتجهان إلى أسواق مدينة تمبكت تخرج القافلة الأولى في النصف الأول من السنة والثانية في لنصف الثاني[7] ، وتمر القافلة المتجهة نحو تمبكت بمنطقة المبروك[8] وأرجوان[9] ، ويعتبر أكثر الطرق أمنا ، ولذلك ولذلك كانت قوافل الإقليم التواتي تسلكه مرورا بتاودني[10].

وسيطر على هذا الطريق قبيلة مسوفة ، ولهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل ، ومن الراجعين بالتبر من بلاد السودان وظلوا يسيطرون عليه حتى أواخر القرن الثامن هجري .

---

[1] – جورج مارسي : المرجع السابق ، ص98 .

[2] – إبراهيم بكير بحاز : المرجع السابق ، ص218 .

[3] – عبد الرحمن ابن خلدون : العبر ،المصدر السابق ، ج7 ، ص207 .

[4] – إبراهيم بكير بحاز : المرجع السابق ، ص218 .

[5] – محمد شقير : تطور الدولة في المغرب إشكالية التكون والتمركز والهيمنة ، (د ط) ، إفريقيا الشرق ، 2002 ، ص144 .

[6] – علي محمد عبد اللطيف : تمبكتو أسطورة التاريخ ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ، 2001 ، ط1 ، ص29 .

[7] – فرج محمد فرج : إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1977 ، ص79 .

[8] – هي واحة ومحطة رئيسية للقوافل المتجهة نحو أروان وتنبكت .

[9] – مدينة تقع على بعد 250كيلو متر من شمال تنبكت .

[10] – فرج محمد فرج : نفس المرجع ، ص91 .

وفي الغالب تمكث القافلة حوالي ثلاثة أشهر ، تستبدل أثناءها سلعها التي تجلبها بالسلع المعروضة في أسواق تمبكت ، وتعود القافلة سالكة نفس طريق الذهاب ، وتدفع الضرائب على ما تحمله من سلع الجنوب النادرة .

2– المراكز التجارية :

أ – في المغرب الأوسط :

– ورجلان : تقع على خطي عرض 30.50 شمالا 05.17 شرقا في حدود الجزائر الشرقية ، وتعتبر ورجلان البداية الشرقية لواحات الجزائر ، وتميزت بوفرة المياه الباطنية التي توجد في أعماق بعيدة ، إلا أنها تتدفق عند حفرها بكميات كبيرة[1]، فقد اكتسبت شهرتها الواسعة لارتباطاتها التجارية الواسعة وكونها المركز الأول لتجارة المغرب الأوسط ولأهلها الدور الريادي في قيادة قوافل التجارة إلى السودان الغربي منذ زمن إمبراطورية غانا الوثنية[2]. قال عنها الوزان بأنها مدينة أزلية بناها النوميديون سكانها أثرياء وذلك لاتصالها بأقدز بأقدز وبضائعها تنقل إلى بلاد السودان و ونقارة مقابل التبر ، الذي تسك منه الدراهم والدنانير[3] ومن هنا ندرك مدى الارتباط الوثيق بين ورجلان ونظيراتها في السودان الغربي .

– توات : تقع توات إلى الجنوب الغربي من الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية وتبعد عن عاصمة الجزائر حوالي 1500كم[4]، وتعتبر توات مركزا من المراكز التجارية الهامة ، التي تعتبر كهمزة وصل بين الشمال الإفريقي والسودان الغربي ، حيث عملت على تزويد التجار بما يلزمهم من غذاء وماء ، وغالبا ما يقوم تجار السودان وتجار الشمال الإفريقي ، بعرض بضاعتهم بها.

وقد كان اليهود المحرك الأساسي لتجارة توات ،فتواجدت الجالية اليهودية الغنية بكبار أرباب التجارة ، وأرباب السفن والشراكة الأوروبية ، التي تتعامل مع المغرب آنذاك ، خاصة أبناء ملتهم المقيمين بأوروبا[5].

[1] – ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ص126 .
[2] – الهادي المبروك الدالي : المرجع السابق ، ص299 .
[3] – الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص136 .
[4] – فرج محمد فرج : المرجع السابق ، ص01 .
[5] – الهادي المبروك الدالي : نفس المرجع ، ص300 .

وبهذا أصبحت توات ملتقى طرق مهما لعدد كبير من القوافل التجارية القادمة من الشمال الإفريقي ، والمنطقة نحو السودان الغربي .

– **تلمسان** : تقع مدينة تلمسان على السفح الشمالي لجبل الصخرتين [1]، وهذا الجبل هو الطرف الشرقي لسلسلة جبال الريف التي تسير بموازاة السهل الساحلي من المغرب الأقصى حتى تصل إلى منطقة ضيقة قرب تلمسان حيث اعتبرت هذه المنطقة الحد الفاصل بين المغرب الأقصى والأوسط [2] مما مكن تلمسان من السيطرة على الممر البري بين الداخل والخارج للمنطقة .

تعددت المصادر التي وصفت تلمسان فقد وصفها البكري في المغرب قائلا " هي مدينة في سفح جبل شجرة الجوز ولها خمسة أبواب ....وهذه المدينة (تلمسان) قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومدارس وهي دار مملكة زناته وموسوطة قبائل البربر ومقصد التجار . ووصفها الإدريسي قائلا " وتلمسان مدينة أزلية ولها صور حصين متقن الوثاقة وهي مدينتان في واحدة ، يفصل بينهما سور ولها يأتيها من جبلها المسمى الصخرتين ...وما جاورها من المزارع كلها مسقي ، وغلاتها ومزارعها كثيرة ، وفواكهها جمة وخيراتها شاملة ولحومها شحيمة سمينة ، وبالجملة إنها حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها ومراح تجارها ، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرفه منهم حالا "[3]

أما حسن الوزان فقد قال " أن مملكة تلمسان يحدها نهر ملوية غربا والواد الكبير صحراء نوميديا جنوبا ولهذه المملكة ميناءان مشهوران ميناء وهران وميناء المرسى الكبير وكان يختلف إليهما كثيرا عدد وافر من تجارة جنوة والبندقية [4].

وذكر ياقوت الحموي أن " تلمسان مدينتان متجاورتان مُسورتان بينهما رمية حر إحداهما قديمة والأخرى حديثة "[5]

ولتلمسان دور تجاري بارز بحكم موقعها ، فهي تقع على الطريق الواصل بين المغرب الأدنى والأقصى وفي نفس الوقت حلقة الوصل بين أوربا وبلاد السودان الغربي ، وهي محط أنظار التجار وفي ذلك يقول القلقشندي " ويقصدها تجار الآفاق للتجارة " .

---

[1] – الإدريسي أبو عبد الله : المصدر السابق ، ج1 ، ص215 .

[1] – ابن حوقل : المصدر السابق ، ج2 ، ص15 .

[3] – الإدريسي أبو عبد الله : نفس المصدر ، ج1 ، ص 150.

[4] – الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص9 .

[5] – ابن حوقل : نفس المصدر ، ج2 ، ص15.

ب – في السودان الغربي :

– جني :تقع مدينة جني إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكت وتبعد عنها بحوالي 600 كلم قال السعدي أنها تأسست في القرن الثاني هجري[1]،حضيت بأهمية اقتصادية كبيرة نظرا لموقعها المتميز كملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء وجنوبها اشتهرت بتجارة الملح والذهب وصفها السعدي بقوله "وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا وأرباب الذهب من معدن بيط "[2] وقد زادت ازدهارا وقيمة تجارية بعد أن دخلها الملك سني علي حيث عمل على تطويرها ودعم الأمن بها بعد أن تزوج أم أميرها.

وفي زمن الأسقيا الحاج محمد الكبير أصبحت جني أكثر ازدهارا وملتقى للتجار داخل السودان الغربي وخارجه وقد مكنها موقعها من الاستفادة من النقل النهري لنقل الملح والذهب وباقي السلع بالقوارب من تنبكت وجاو وسيقو إلى جني والعكس[3].

– تمبكت : تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بما يعرف بمنحى نهر النيجر وقد مكنها موقعها المتميز من أن تلعب دورا مهما في اقتصاد شمال وجنوب الصحراء ، وقد مثلت التجارة المصدر الرئيسي في حياة سكانها وتوافد عليها التجار من داخل السودان وخارجه وخاصة من الشمال الإفريقي[4].

وقد بلغت ذروة الازدهار الاقتصادي في القرن العاشر الهجري الذي عرف بالعصر الذهبي لتلك المدينة وقد بلغت القوافل القادمة إليها من الشمال الإفريقي في سنة 751هـ/1350م اثني عشرة ألف جمل .

وقد أعجب الحسن الوزان بوفرة خيرات تمبكت وبكثرة الحوانيت التي تبيع المنتوجات القطنية والأقمشة المجلوبة لها من الشمال الإفريقي[5] ، وقد أفاد السعدي بأن تمبكت ملتقى التجار وأصحاب رؤوس الأموال الضخمة من كل البلاد .

– أقدز : تقع أقدز في الشمال الشرقي من نيامي عاصمة جمهورية النيجر وتبعد عنها بألف كيلومتر والذي يهمنا منها مكانتها التجارية فقد احتلت موقعاً مهماً، وقد كتب عنها الحسن الوزان وأشار إليها تحت مملكة أغادس ، وأفاد عنها أن أغلب أهلها من العرب المغاربة الذين اشتغلوا بالتجارة ، ويعتمد دخلها على

[1] – عبد الرحمن بن عبد الله السعدي : المصدر السابق ، ص12 .

[2]- Delafosse : Hante Senegal – Nigv ; Paris 1912 , p280 .

[3] – الهادي المبروك الدالي : المرجع السابق ، 307 .

[4] – نفسه ، ص 307 .

[5] – الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص ص 165، 166 .

الضرائب التي تؤخذ من التجار الوافدين عليها ، ونقلت منها القوافل بضائعها المتمثلة في البخور والذهب كما أن العلك من بين المواد الغالية الثمن التي تحملها القوافل التجارية إلى أقدز[1] .

رابعا : نظام سير القوافل ومصاعب الصحراء :

امتازت الطريق الواصلة لبلاد السودان تحديدا بكونها مفاوز مقفرة معطشة شديدة الحر والقر وليس لسالكها من المصاعب مخرج ، وهذا الحال يفترض الملائمة في المسير الذي يحدده ابن حوقل بفصل الشتاء[2] بينما الإدريسي يجعله في زمن الخريف[3].

أما عن نظام حركة القوافل فهي حسب ابن بطوطة تبدأ بالترحال بعد صلاة العصر وتسير طوال الليل ومن ثم النزول عند الصباح[4]، وقد فصل فيها الإدريسي حين قال " حيث أنهم يوقرون جمالهم في السحر الأخير ويمشون إلى أن تطلع الشمس ويشتد الحر على الأرض ، فيحطون أحمالهم ويقيدون جمالهم ويغرّون أمتعتهم ويخيّمون... ويقيمون كذلك إلى وقت العصر حينئذ...يرحلون من هناك ويمشون بقية يومهم ويواصلون المشي إلى القمة ويغرسون أينما وصلوا ويبيتون بقية الليل إلى أول الفجر ثم يرحلون "[5] .

وأيا تكن هيئة تحرك القوافل فإنها ستجد نفسها عرضة لمقاومة العديد من المخاطر ما اتصل منها بالرياح وما تحدثه من طمس لمعالم الطريق ومحو آثار المسير وتفريق القوافل كلما ازدادت قوتها[6]، وإلى جانب الرياح يأتي العطش الذي لا يقل خطورة عن سابقه إذ تعرف المفاوز بأنه لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة[7]، فيعرض ابن بطوطة أمامنا صورة من خط مسيرهِ ساعة وصوله إلى " تاسرهلا وهي أحساء ماءٍ تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام يستريحون ويصلحون أسقيتهم و يملؤونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوفا من

[1] – الهادي المبروك الدالي : نفس المرجع ، ص 311 .
[2] – ابن حوقل : المصدر السابق ، ج2 ، ص100 .
[3] – الإدريسي أبو عبد الله : المصدر السابق ، ص 88 .
[4] – بن بطوطة : المصدر السابق ، ص 369 .
[5] – الإدريسي أبو عبد الله : المصدر السابق ، ص88 .
[6] – ابن حوقل : نفس المصدر ، ج2 ، ص65 .
[7] – عبد الرحمن ابن خلدون : العبر ، المصدر السابق ، ج7 ، ص439 .

الريح "[1] وقد يتصل بمناطق وجود الماء توفر المراعي التي تكون مناسبة لعلف الماشية . ولتجنب خطورة فقدان الماء يلجأ المسافرون التجار إلى حفر آبار لا تتعدى عمقها نصف قامة في بعض المناطق[2] .

ويضاف إلى جملة المصاعب ما يحيط بطرق الصحراء من أعمال قُطاع الطرق والأَعداءُ، وأن يحذر من هوام الأرض ودوابها فهي كثيرة ورغم هذا إلا أن التجار كانوا مولعين بالدخول لأرض السودان[3] ، معتمدين على وسيلة تحمل الصعاب والعطش (الجمل) فهو الوحيد القادر على عبور الصحراء دون أن تُهمل دور الخيل ، وقد ذكر ابن خلدون عدد الجمال في القافلة التجارية والذي يبلغ تعدادها اثني عشرة ألف راحلة ، وابن حوقل ذكر كثرة الجمال في بلاد المغرب فقال بأنها لا تدانيها في الكثرة إبل عرب[4] ، ويحتاج لقطع المسافة شهرين أو ثلاثة أما حسب ليشو فإن القوافل تستغرق خلال تحركها من ثلاثة إلى أربعة أشهر وعند طريق العودة تستغرق أكثر نظرا للعبيد الذين يرافقونهم "[5] .

ويتخذ التجار العدد الكثير من الجمال في القافلة فمثلا من حمل معه ثلاثين جملاً إلى بلاد السودان وبمجرد وصوله يبيعها كلها ولا يُبقي إلا اثنين أو ثلاثة واحدا يركبه والآخر عليه الماء ومبلغ الجمال يأخذه ذهبا على البعير الثالث ، فالتاجر قد أخذ الجمل بضاعة إلى أرض السودان[6].

وأمام هذه الصعوبات والمخاطر استعانت بعض القبائل والتجار ببعض الأشخاص يطلق عليهم الأدلاء وهم ذو خبرة ومقدرة كبيرة على قفار وصحاري السودان وقد قال ابن بطوطة في وصف أحدهم " كان أعور العين الواحدة ومريض الأخرى وهو أعرف الناس بالطريق "[7]، وقد يضطر بعض التجار لقبول أي شرط من شروطهم حتى يستأجره لمواصلة الطريق ، فهذا العمل هو مصدر الرزق الذي يتخذونه للعيش بالإضافة إلى عملهم الثاني والذي يتمثل في الترجمة بعد الدخول إلى أرض السودان حيث لا تتم العملية التجارية إلا بواسطتهم ، وقد أخبر ابن خلدون أن سلطان مالي " منسا موسى "حينما أوفد وفادته للسلطان أبي حسن بتلمسان كان يرافقها ترجمان من الملثمين المجاورين لممالك صنهاجة "[8] .

[1] – محمد عبد الله بن بطوطة : المرجع السابق ، ص 368 .

[2] – إبراهيم بكير بحاز : المرجع السابق ، ص221 .

[3] – عبد الرحمن ابن خلدون : العبر ، نفس المصدر ، ج7 ، ص439

[4] – ابن حوقل : المصدر السابق ، ج2 ، ص98 .

[5] – Jean Lethieiulliux : OP . Cit , P163 .

[6] – إبراهيم بكير بحاز : المرجع السابق ، ص223.

[7] – بن بطوطة : المرجع السابق ، ص 369 .

[8] – عبد الرحمن ابن خلدون : العبر ، المصدر السابق ، ج7 ، ص266 .

الفصل الثالث : العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي 5- 10هـ / 11- 16م .

أولا : ملامح الحياة الثقافية في المغرب الأوسط والسودان الغربي

1- الحياة الثقافية في المغرب الأوسط

2- الحياة الثقافية في السودان الغربي

ثانيا : العوامل المساعدة على التواصل الثقافي بين المغرب الأوسط والسودان الغربي

1 - دور التجار :

2 - دور الملوك :

3 – دور الرحلة :

ثالثا : تأثير المغرب الأوسط في حضارة السودان الغربي .

أولا : نشر المذهب المالكي و الإباضي .

ثانيا : انتشار اللغة العربية :

ثالثا : نشر الطرق الصوفية .

أولا : ملامح الحياة الثقافية في المغرب الأوسط والسودان الغربي

1– ملامح الحياة الثقافية في المغرب الأوسط .

عرف المغرب الأوسط عهدًا حافلاً بالأمجاد في مُختلف المجالات الحضاريّة، خاصّة في المجال العلمي حيث ازدهرت الحركة العلميّة بتشجيع السلاطين للعلم و العُلماء ؛ فبرزت الحواضر العلمية و مراكز الإشعاع العلمي فكانت تلمسان وبجاية وتوات و ورجلان وغيرها .

أ– الحواضر الثقافية :

1 – تلمسان :

تقع في سفح جبل بني ورنيد المار جنوبا و يسمى قابلتها بالصخرتين و ينحدر منه نهر سطيف المار بشرقها ليلتقي بنهر يسر ثم بنهر تافنا [1].

تأسست مدينة تاجررات تلمسان الجديدة من قبل يوسف بن تاشفين [2] سنة (473هـ/1081م)و عرفت الحركة الفكرية بها نشاطا في عهد المرابطين ، فأصبحت تلمسان مقرا لولايتهم في المغرب الأوسط إذ شيدوا القصر و جعلوه مقرا للتواصي و بنو المسجد الأعظم أو الجامع الكبير سنة (530هـ / 1136م) وأصبحت تلمسان حاضرة من حواضر المغرب الإسلامي.[3]

وتلمسان كما يصفها الإدريسي (ت 560هـ / 1165م) ، بقوله هي مدينة أزلية ويقصد مدينة أكادير ، ولها صور حصين ، الوثائق ، وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور ، ثم وصفها بالخصب ورخص المعيشة وكثرة الخيرات .

كما يقول عنها البكري (ت 487هـ/ 1094م) ".. ولم تزل تلمسان دار للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمة الله عليه ..."[4]

---

[1] – البكري أبو عبيد الله : المصدر السابق ، ص76.

[2] – علي عشي : المغرب الأوسط في عهد الموحدين (دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية 534هـ/ 1139– 633هـ/1235م) مذكرة ماجستير ، مخطوطة ، جامعة الحاج لخضر ، قسم تاريخ علم الآثار ، باتنة ، 2012/2011 ، ص67.

[3] – البكري أبو عبيد الله : نفس المصدر ، ص76.

[4] – نفسه ، ص76 .

2 – وارجلان :

أو وركلان ، وهي مدينة تقع في الجنوب من مدينة تقرت ن وصفها البكري بأن بها سبعة حصون للبربر أكبرها حصن "أغرم أن يكامن " أي حصن العهود وبينها وبين قلعة بني حماد مسيرة ثلاثة عشرة يوما[1].

ويسميها الحميري واركلا ويقول ويقول بأنها في طرف الصحراء مما يلي إفريقية وهو بلد خصيب كثير النخل والبساتين ، وفيه سبع مدن محصنة بعضها قريب من بعض [2]، يرجع اسمها إلى القبيلة وهم بني واركلا ، إحدى بطون زناته من ولد فرني بن جانه [3].

تزهو واركلا بجامعها الكبير والذي كان مقرا للعلم والتشاور ومولدا للعلماء والفقهاء .

ب– المؤسسات الثقافية :

1– المساجد :

إنّ تاريخ التّعليم في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط، إرتبط إرتباطًا وثيقًا بالمسجد[4] حيث قامت فيه حلقات الدّرس ، و السّبب الّذي جعل المسجد يلعب هذا الدّور التربوي هو أنّ الدراسات الأولى كانت تهتم بتعليم و توضيح تعاليم الإسلام، و كذا إتخاذه مكانًا لدراسة و حفظ القرآن و الفقه و الإشتغال بالآداب[5].

ثمّ أسّس إلى جانب المسجد مركزا تعليميًا آخر خصص لتعليم الصِبيان عرف بالكُتّاب.

أ– مسجد المنصورة : يذكر ابن خلدون أن منشأ هذا المسجد هو السلطان أبويعقوب بن عبد الحق وذلك سنة 702 هـ /1302 م ، يبلغ ارتفاعها 38 م ، مما يجعلها أعلى مئذنة شيدت في الجزائر: "الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر بناء هذا الجامع المبارك أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين المرحوم

[1] – البكري أبو عبيد الله : المصدر السابق ، ص182.

[2] – الحميري محمد بن عبد المنعم : المصدر السابق ، ص600 .

[3] – عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق ، ج7 ، ص69 .

[4] – أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، دار الإتحاد العربي للطباعة ، مصر ، ط5 ،1976 ، ص101 .

[5] – محمد بو شقيف : المدرسة ونظام التعلم بالمغرب الأوسط خلال القرنين 8 – 9 هـ / 14– 15 م ، دورية كان التاريخية ، ناشري للنشر الإلكتروني ، ع11 ، مارس 2011 ، ص58 .

أبو يعقوب بن عبد الحق رحمه الله " وقد بني هذا المسجد من الطوب المدكوك على مساحة تقدر بـ 5600 م[2] وله13 بابا .

ب– مسجد سيدي أبي مدين : شيده السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المديني سنة 739هـ /1339 م بقربة العباد، وأعطاه اسم ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب بن الحسن أحد متصوفي المغرب الإسلامي والمتوفي سنة 594 هـ وقد أشرف على بنائه أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق .

2 – المدارس :

كان نتيجة لكثرة العلوم المتداولة في المسجد وتشعب مهامه ، أدى إلى ظهور مركز ثاني من مراكز التعليم ألا وهي المدرسة ، حيث ظهرت المدرسة أول مرة في نيسابور[1] ، وذلك بتشييد المدرسة البيهقية في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، أما في المغرب الأوسط فقد تأخر ظهور المدارس إلى القرن 8هـ/14م [2].

و نتيجة لهذا تأسّست عدّة مدارس في المغرب الأوسط[3]، حملت على عاتقها لواء نشر التّعليم في أرجائه و من أهمها.

أ– مدرسة ابني الإمام: هي أوّل مدرسة أسّسها السُلطان الزياني أبو حمو موسى الأوّل بالمغرب الأوسط في مدينة تلمسان، و عيّن للتّدريس فيها ابني الإمام أبي زيد عبد الرّحمن (ت 743هـ/1342م) و أبي موسى عيسى (ت 749هـ/1349م) فصارت تُعرفُ بِاسمها. كما عُرفت أيضًا بِاسم المدرسة القديمة. و كان موقعها بالقُربِ من باب كشوطة غرب مدينة تلمسان[4].

ب– المدرسة التاشفنيّة : هي أهم مدرسة بالمغرب الأوسط، أسّسها السُلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأوّل لفائدة العالم الكبير أبي موسى عمران المشّدالي الزواوي (ت 745هـ/1345م) أعْرَفَ أهل عصره

[1] – المقريزي أبو العباس : المصدر السابق ، ج2 ، ص363 .

[2] – عبد العزيز فيلالي : تلمسان في العهد الزياني ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر،2002، ج2 ص325.

[3] – حسن الوزان : المصدر السابق ، ص 19

[4] – محمد بوشقيف : المرجع السابق ، ص 59 .

بمذهب الإمام مالك ، و ظلّت هذه المدرسة تؤدّي وظيفتها التعليميّة طيلة العهد الزياني[1]. إلى أن هُدّمت عام 1875م.

ج- المدرسة اليعقوبيّة: شيّد هذه المدرسة السُلطان أبو حمو موسى الثاني ، و سمّاها اليعقوبيّة تخليدًا لذكرى والده أبي يعقوب يوسف، الّذي كان حاكمًا بمدينة الجزائر و المتوفّى سنة 763هـ/1362م ، و عُيّن للتدريس فيها العالم الجليل أبو عبد الله الشريف (ت 771هـ/1370م). كما أسّس إلى جانبها زاوية و مقبرة مخصّصة لآل زيان[2] .

د- مدرسة سيدي أبي مدين شعيب: أنشأ هذه المدرسة السُلطان المريني أبو الحسن عام 737هـ/1337م بعد إخضاعه لتلمسان و بناها بقرية العُبّاد بالقُربِ من جامع أبي مدين شعيب. وعُرِفت هذه المدرسة بفنّها المعماري ذي الطّابع العربي الإسلامي ، و ما زالت قائمة إلى يومنا هذا تتحدّى الزمن وتشهد على مدى الإزدهار المعماري المريني بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط[3].

2-1- مراحل التعليم بالمغرب الأوسط:

- مرحلة التّعليم الابتدائي: كان الهدف المتوخّى من التّعليم في هذه المرحلة هو تحفيظ القرآن الكريم و بعض مبادئ اللّغة و إكساب الخط ، و قد تمّ مزاولة هذا التّعليم في الكتاتيب حيث أنّ الصبيان يدخلون الكتّاب في سنّ معيّنة تتراوح ما بين الخامسة و السّادسة[4] ، و المؤدب يكون حريصًا كلّ الحِرص على تحفيظ هؤلاء القرآن و التلاوة الحسنة، ثمّ يتفقد حفظهم في أيام معيّنة كيوم الأربعاء مساءًا و الخميس، هذا إضافة إلى تعليمهم أمور العبادة مثل كيفية الوضوء والصلاة ، والتشديد عليهم من أجل استيعابها[5] .

- التعليم الاحترافي :

كانت دُروس هذه المرحلة تتم في المساجد الجامعة كالجامع الأعظم ، فبعد تمكّن الطلاّب من حفظ القرآن الكريم و الإلمام بمبادئ المواد الأساسيّة الأُخرى، كالخط و الكتابة و اللّغة و علم القراءات في المرحلة

[1] - بسام كامل عبد الرزاق شقران : تلمسان في العهد الزياني ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ،كلية الدراسات العليا ، نابلس ، فلسطين ، 2002 ، ص 240 .

[2] - عبد الرحمان الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، الجزائر ، 1955، ج2 ، ص 249 .

[3] - عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ، ص 143 .

[4] - بسام كامل عبد الرزاق شقران : نفس المرجع ، ص 221 .

[5] - محمد بوشقيف : المرجع السابق ، ص59 .

السّابقة نجدهم في هذه المرحلة ينكبّون على دراسة مختلف التخصّصات العلميّة، و كذا أصناف العُلوم المعروفة آنذاك فيطرقون باب العلوم الدينيّة ، خاصّة الإحاطة بعلم تفسير القرآن و الإطلاع على علومه، من قراءات ورسم وضبط ، إضافة إلى معرفة علوم الحديث و الفقه خاصّة المالكي ، وعلم الفرائض مقرونا بعلم الحساب ثمّ علوم اللّغة العربيّة و آدابها و غيرها من العلوم[1].

وكان يقوم بتدريس الطّلبة في هذه المرحلة أساتذة مُتخصّصون ومشهود لهم بالتفوّق في مختلف المواد العلميّة.

2–2 – مناهج التعليم :

أ– العلوم النقلية:

القراءات: كان علم القراءات في مقدمة العلوم الدينية،باعتباره أول محاولة في تفسير القرآن الكريم،و كان المغرب الأوسط من أشد الأقطار الإسلامية اهتماما بهذا العلم نظرا لاختلاف اللهجات فيه . وكان من أوائل المقرئين محمد بن عبد الله المعافري القلعي (ت581هـ/1186م).

التفسير: و من أبرز المفسرين للقرآن الكريم بالمغرب الأوسط،أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني الذي ألف تفسير القرآن في سبعين جزءا و محمد بن يخلف بن يوسف بن حسون و موسى بن الحاج بن أبي بكر الأشيري و أبو الوليد يزيد بن أبي الحسن بن عبد الرحمن و أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان بن جبل الذين[2].

علم الكلام: كان المغرب الأوسط يسير على مذهب السلف الصالح و يمقت "علم الكلام"الذي يتصدى لتأويل المتشابه من القرآن الكريم.وإن وجد بعض العلماء الذين اهتموا بعلم الكلام بالمغرب الأوسط محمد الخونجي (ت 649 هـ/1248م)[3] الذي ألف كتاب كشف الأسرار عن غوامض الأفكار.

الفقه : ومن فقهاء هذا العصر بالمغرب الأوسط أبو زيد عبد الرحمن بن الإمام (ت743هـ/1343م) والذي ألف كتابا ضمن فيه شروحا وافية على مختصر ابن الحاجب الفرعي، وألف أبو عبد الله محمد بن أبي عمر التميمي (745هـ/1345م) كتابا بعنوان " ترتيب كتاب اللخمي على المدونة " [1].

[1] – محمد بوشقيف : المرجع السابق ، ص 60 .

[2] – علي عشي : المرجع السابق ، ص 204 .

[3] – هو محمد بن نامارو بن عبد ملك الخونجي الشافعي (ت 646هـ/1247م) نزيل مصر عنه انظر، محمد بوشقيف : المرجع السابق ، ص251.

علوم اللغة العربية : ومن أشهر الكتاب و الشعراء الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن باديس (ت564هـ/1168م) كان أديبا نحويا .والأديب الشاعر الطاهر عمارة بن يحي بن يحي كان متقدما في علم اللغة العربية وتواشيحه في نهاية الحسن و بها يضرب المثل ، ولأبي مدين شعيب (ت594هـ/1197م) شعرا صوفيا رائعا وله قصائد ومقطوعات كثيرة [2].

ب- العلوم العقلية:

الطب و الصيدلة :كان نتيجة لنمو الحركة العلمية دور في تطور العلوم ومنه تطور الطب والصيدلة ومن الأطباء الحاذقين محمد بن سحنون الندرومي الذي ولد 580هـ/1148م درس الطب على يد ابن رشد وكان الطبيب الخاص لخلفاء الموحدين [3].

الفلسفة : ازدهرت العلوم ونشطت الحركة التعليمية و كان من جملتها الفلسفة التي بلغت أوجها على يد ابن رشد و طلبته ، فبعضهم كان من المغرب الأوسط و من أشهر الكتب و المؤلفات الدراسية الرسالة لابن أبي رشد و المستصفي و إحياء علوم الدين للغزالي[4] ومن أشهر فلاسفة المغرب الأوسط،أبي حامد الصغير المسيلي الذي شبه بغزالي المشرق لاجتهاداته المتنوعة في الفلسفة و الحكمة و الفقه و التوحيد كما كان أبو عبد الله محمد بن سحنون الكومي الندرومي طبيبا و فيلسوفا من تلامذة ابن رشد رائد الفلسفة بالأندلس[5].

الرياضيات: يبرز ميدان الرياضيات أكثر في دور بجاية الثقافي و الحضاري ،فقد خطا المسلمون خطوات هامة في علوم الحساب والهندسة و الجبر والميكانيكا و حساب المثلثات ومما ساهم به أهل المغرب الأوسط في الرياضيات "شرح كتاب التلخيص" لسعيد بن محمد العقباني ، وكتاب "كتاب في علم المساحة " لعيسى المنكلاتي وغيرهم كثير[6] .

---

[1] - عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ،ص448.

[2] - علي عشي : المرجع السابق ، ص251 .

[3] - محمد بوشقيف : المرجع السابق ، ص258 .

[4] - علي عشي : نفس المرجع ، ص265.

[5] - بسام كامل عبد الرزاق شقران : المرجع السابق ، ص234 .

[6] - محمد بوشقيف : نفس المرجع ، ص267.

2-3- الإجازة :

الهدف الأسمى الّذي كان يسعى من ورائه طُلاّب العلم هو الحصول على الإجازات في مختلف العلوم، و من أشهر العُلماء المشهود لهم بالتفوق فيها لذا كان عليهم زيارة المراكز العلمية المشهورة آنذاك ، بهدف الإتصال بكبار العُلماء و الأخذ عنهم و الحصول على الإجازة و الرواية منهم، و ذلك حرصًا على السند العلمي الّذي بفضله يصل الطّالب بمؤلفي كُتُب العلوم خاصّة علم الحديث الّذي اِرتبطت به الإجازة العلميّة اِرتباطًا وثيقًا لأهميته في حفظ رواياته الّتي بفضلها يتم هذا العلم و يكتمل و بدونها يكون ناقصًا لا محالة . و لهذا شدّد عُلماء الحديث في منح الإجازة إلاّ للطالب النجيب، و الّذي ألمّ بأسانيد كُتب هذا العلم و حفظ رواياته ، ومن أجل هذه المهمّة النبيلة رحل الكثير من عُلماء وطُلاّب المغرب الأوسط خلال القرنين 8-9هـ إلى الحواضر العلميّة الإسلاميّة آنذاك للحُصول على الإجازة في مُختلف العُلوم الدينيّة و خاصّة علم الحديث من قِبل علمائه[1] .

2- ملامح الحياة الثقافية في السودان الغربي :

كان لانتشار الإسلام بغرب القارة السمراء خلال القرن الأول الهجري السابع الميلادي (1هـ/7م) بفضل جهود الفاتحين الأوائل وكذا التجار والدعاة أثر كبير على سكان المنطقة، فقد أصبح الإسلام القوة الدافعة التي خطت بالحياة الإنسانية في غرب القارة تلك الخطوات الحضارية القوية، فهو الذي أمد هذه البلاد بالمعارف المختلفة من آداب وعلوم وفنون، كما أمدها بوسائل المعرفة من علماء ومدارس وجامعات.

أ- الحواضر الثقافية :

1- تمبكتو :

احتلت تمبكتو[2] مكانة مميزة حيث كانت تمثل بوابة للسودان الغربي ، هذا ما أهلها لأن تكون حاضرة من الحواضر الثقافية المهمة، وتقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ما يعرف اليوم بمنحى نهر النيجر[1] حيث تقع على بعد 12 ميلا من أحد فروعه[2] ، مما جعلها تستفيد من مزايا النقل النهري .

---

[1] - علي عشي: المرجع السابق ، ص136.

[2]- تشير الروايات المتوفرة إلى أن الاسم الحقيقي لمدينة تمبكتو هو تين بكتو أو تيم بكتو ، وتين وتيم تعني اسم إشارة إلى المكان المرتبط باسم السيدة المنسوبة إليه والتي تدعى بكتو ، في حين يرى البعض أن تين تعني البئر ، وتنسب لامرأة عظيمة مشهورة بالأمانة ، وكان الطوارق يستأمنونها على حوائجهم ، للمزيد ينظر علي محمد عبد اللطيف : تمبكتو أسطورة التاريخ ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ، ليبيا ، ط1 ، 2001 ، ص85.

وتأسست حوالي 1100م[3] ، وان اختلفت الروايات حول نشأتها إلا أنها تتفق على أنها مدينة إسلامية عريقة لم تعرف دينا غير الإسلام ويعتز أهلها بالمقولة التاريخية الخالدة "أنها المدينة التي لم يسجد على أديمها غير الرحمان وهي القبلة التي قصدها مسلمو قرطبة[4] .

حظيت تمبكتو باهتمام كبير لتنشيط الحركة الثقافية بها ، سواء من طرف الحكام أو العلماء أو المحسنين الذين شيدوا العديد من المنشآت الثقافية التي كان لها دورا كبيرا في نشر الثقافة العربية الإسلامية خاصة خلال القرن 10هـ / 16م.

2- جني :

أسست هذه المدينة على نهر النيجر الأعلى، في منتصف القرن الثاني من الهجرة النبوية الشريفة[5] أسلم أميرها كنبرو وحذت رعيته حذوه ، ووفد إليها طلاب العلم والفقهاء يقول السعدي " وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة ، سكانا من العلماء والصالحين من غير أهله من قبائل شتّى ، وبلاد شتّى "[6]، وكان الطلبة يسرعون إلى العلماء والفقهاء لاقتباس علمهم والتتلمذ على أيديهم ، وتبدأ الحلقات الدراسية من منتصف الليل وتنتهي مع صلاة الصبح[7].

ب- المؤسسات الثقافية :

أ- المساجد :

شهد السودان الغربي إقامة وتشييد العديد من المساجد[8] ، باعتبارها اللبنة الأساسية في بناء مجتمعها الإسلامي لكونها مركز العبادة والتثقيف والتعليم ،فقد لعبت دورا مميزا في نشر مبادئ العقيدة الإسلامية وعلوم القرآن والسنة[9] وكان من أبرز هذه المساجد :

---

[1] – الهادي المبروك الدالي : المرجع السابق ، ص117 .

[2] – الوزان حسن : المصدر السابق ، ج2 ، ص165 .

[3] – محمد بن عمر التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، تح خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد ، مر : محمد مصطفى زياده ، الدار المصرية ، القاهرة ، 1965 ، ص134 .

[4] – عطية الفيتوري : المرجع السابق ، ص 291 .

[5] – عصمت عبد اللطيف دندش : المرجع السابق ، ص160.

[6] – السعدي عبد الرحمن : المصدر السابق ، ص. 16

[7] – أحمد الشكري : المرجع السابق ، ص213.

[8] – نفسه ، ص209 .

[9] – أمطير سعد غيث : المرجع السابق ، ص209 .

الجامع الكبير : وهو المعروف عند التمبكتيين باسم جنغري بير ، أسسه الملك منسا موسى 726هـ / 1327م وأشرف المهندس أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن على بناءه وقد دفع له الملك مقابل ذلك 12 ألف مثقال من الذهب[1] ، وهو مبنى حصين له فناء واسع وبرج ذو شكل مربع كما في بلاد المغرب المغرب وله خمسة أبواب مختلفة الأحجام وعلى الجدار الشرقي زخارف ملونة وجدرانه مرتفعة ويعتبر أول معلم يتراءى لزائر المدينة

مسجد سنكري : يقع في الشمال الشرقي للمدينة ، سمي سنكري نسبة للحي الذي بني فيه ، حيث قامت امرأة ثرية ببنائه ، وقام القاضي العاقب بن القاضي محمود بإعادة

ترميمه عام986هـ/1578م[2]، وتحول إلى جامعة إسلامية راقية على نمط جامع الأزهر وذاع صيته بما بلغه من مستوى علم رفيع[3].

ب– الكتاتيب:

لاحظ المؤرخون الرحالة نمو الحياة الثقافية بشكل عام في منطقة السودان الغربي، فقد أشار ابن بطوطة بأن السودانيين كانوا يولون أهمية كبرى لتعليم أطفالهم وإرسالهم إلى الكتاتيب واجتهادهم في ذلك[4]، وقد أحصي خلال القرن السادس عشر في مدينة تمبوكتو لوحدها ما يناهز مائة وثمانون (180) كتّابا لتعليم الصغار[5] بالإضافة إلى المساجد والمنازل الخاصة التي كانت تشكل تجمعات علمية أقيمت بها حلقات للدرس والمناظرة.

والأسلوب المتبع في الكتاب يشبه ما يتبعه المغاربة حيث يبدأ الطفل في تهجي وترديد الآيات القرآنية وراء المعلم وحين يحس الطالب في نفسه القدرة على الكتابة يأخذ في تدوين الآيات على الألواح الخشبية ، ويستمر في الحفظ تحت مراقبة المعلم إلى أن يختم القرآن كتابة وحفظا[6].

[1] – حسن الصادقي : المرجع السابق ، ص 02 .
[2] – السعدي عبد الرحمن : المصدر السابق ، ص111 .
[3] – أمطير سعد غيث : المرجع السابق ، ص – ص ،184 ، 185 .
[4] – ابن بطوطة : المصدر السابق : ص790 .
[5] – محمود كعت التنبكتي : المصدر السابق ، ص180.
[6] – أحمد شكري : المرجع السابق ، ص212 .

ب-1- الشهادات :

أما عن الشهادات المتداولة ، فكانت تعطى الشهادة الدالة على نجاح الطالب الذي أتم المرحلة التعليمية و التي تعبر على مدى تمكنه من مادته وأسانيدها وقد ناقشها معه أستاذه ، ويستلم الطالب شهادته بنفسه وإن كان بإمكان المعلم إرسالها لطالبه .

وكانت هناك شهادات خاصة بعلوم القرآن والحديث ، وهناك شهادات عامة تشمل عدة مواد وفنون بجانب العلوم الدينية ، والشهادة عبارة عن انطباع يسجله الأستاذ على مذكرات الطالب في مادة أو أكثر ، ولا يراعي فيها الأستاذ غير الكفاءة التي يكون الطالب قد حصل عليها ، وتسلم للطالب عمامة كدليل أنه أصبح من العلماء وتؤهله الشهادة لكي يكون إماما أو خطيبا أو مساعدا للقاضي وغيرها كثير[1].

ب -2- العلوم المتداولة (منهاج التعليم):

أ- العلـوم النقليـة : ظلـت علـوم الشـريعة وعلـوم اللغـة مـادتين أساسـيتين في الحركـة الفكريـة الإفريقيـة، وأهـم هـذه العلـوم الشـرعية تلـك المعتمـدة علـى الـنص كعلـم التفسـير وعلـم الحـديث وعلـم الفقه.

1- الفقـه : عرفـت المـدارس وأمـاكن العبـادة في هـذه الفـترة مـن تـاريخ بـلاد السـودان الغـربي انتشار كتب الفقه المالكي بالدرجة الأولى، والتي قدمت إليهم عن طريق بلاد المغرب الأوس

2- علـوم اللغـة والأدب : ومـن بـين العلـوم النقليـة الـتي كانـت تـدرس في المـدارس والجامعـات علـوم اللغـة والأدب مـن نحـو وبلاغـة، ومـن الكتـب الـتي كانـت تـدرس نجـد "تسـهيل الفوائـد وتكميـل المقاصـد" لابـن مالـك، و"شـرح الكافيـة الشـافية" في علـوم النحـو و"شـرح عـن لاميـة الأفعـال وقـد بـرز علمـاء أجـلاء في هـذا الفـن مـن أبنـاء السـودان الغـربي مـن بيـنهم أحمـد بـن عمـر بـن محمـد أقيـت، وأبـو عبـد الله أحمـد بابـا بـن الأمـين المختـار التمبكـتي (1014هـ/1595م) الـذي ألـف "المـنح الحميـدة في شرح الفريدة" وهو شرح لألفية السيوطي في النحو.

[1] – عبد الحميد الجنيدي : المرجع السابق ، ص90 .

أما فيما يخص الأدب من تراجم وتاريخ وشعر فقد اهتم علماء السودان الغربي بهذا الفن وألفوا فيه العديد من المؤلفات من بينها ما ألفه العلامة أحمد بابا التنمبكتي[1] "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" والذي ترجم فيه إلى ثمانمائة واثنين عالما (802)، ومن بين كتب التاريخ أيضا نجد ما ألفه عبد الرحمن السعدي " تاريخ السودان[2] ، و"تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد عن الأحرار"[3].

ب- العلوم العقلية:

1- علم المنطق: وكان من أبرز العلوم العقلية انتشارا وتدريسا بغرب القارة علم الكلام والمنطق والفلك وفيما يخص علم المنطق فقد كان لعبد الكريم المغيلي دور كبير في هذا المجال، إذ كان من بين علماء المغرب الإسلامي الذين تأثروا بدرجة كبيرة بالمنطق على غرار ابن رشد الذي يعد من المتعصبين له، ومن الذين تأثروا بفكره الفقيه محمد بن عمر بن محمد أقيت[4].

2- علم الفلك: أما علم الفلك اهتم به السودانيون وكان من بين العلوم التي كانت تدرس فقد درسوا كتبه المشهورة ومنها "الهاشمية في التنجيم"، و"مقدمة الشيخ عبد الرحمن التاجوري"، وتأليف "المكتوب في الشهور الستة على حساب العجم" لأبي العباس أحمد بن البناء الأزدي .

[1] – أحمد بابا التنبكتي : أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الصنهاجي التنبكتي ولد لعائلة معروفة بالعلم والثقافة سنة 963هـ / 1556م ، من فقهاء المالكية الكبار ، وله عدة تآليف منها شرحه على المختصر ونيل الابتهاج بتطريز الديباج ، توفي بتمبكتو عام 1036هـ / 1627م ، للمزيد ينظر – أحمد بابا التمبكتي : نيل الإبتهاج بتطريز الديباج ، تح : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الاسلامية ، طرابلس ، (د ت) ، ص11 .

[2] – عبد الرحمن السعدي : هو عبد الرحمن السعدي بن عبد الله بن عمر بن عامر السعيدي التمبكتو ، ولد ليلة الأربعاء عام 1004هـ /1596م وقد حفظ القرأن الكريم في صغره على أيدي الأشياخ ، تتلمذ على يد أحمد بابا التمبكتي ، ألف كتابا سماه تاريخ السودان ، توفي عام 1066هـ / 1652م للمزيد ينظر، البرتلي الولاتي : المصدر السابق ، ص176.

[3] – الهادي مبروك الدالي : المرجع السابق ، ص197 .

[4] – محمود بن عمر أقيت : وهو محمود بن عمر بن عمر بن علي بن يحي الصنهاجي التنبكتي يسمى بأبي الثناء وأبي المحاسن عالم البتكرور ولد عام 868هـ/ 1463م كان فقيها وإماما وقاضيا ، تخرج على يديه نخبة من الطلاب والشيوخ توفي عام 955هـ / 1548م . للمزيد ينظر ، أحمد بابا التنبكتي : المصدر السابق ، ص607.

ج– المكتبات :

انتشرت المكتبات التي اقتناها العلماء والأثرياء في تنبكتو وكانت مفتوحة لاطلاع الطلاب والراغبين في العلم وكان العلماء مالكي المكتبات لا يبخلون بالكتب على الطلاب مهما كانت قيمتها ، ومن العلماء مالكي المكتبات محمود بن أبي بكر الونكري (1524 1593) والذي يملك نفائس الكتب ، وأحمد بابا التمبكتي (1556 – 1627)[1] ، وكانت تدور بالمدينة حركة نسخ نشطة ليحصل عن طريقها الطلاب على نسخ من الكتب التي يريدونها[2] ، حيث يقوم بهذه المهمة عادة طلاب من جامع سنكري ، وكان العلماء يقومون بنسخ الكتب وتوزيعها مجانا على العلماء . وكان بالمدينة مكتبة ضخمة يلتقي فيها العلماء أثناء إقامتهم أو عبورهم من مختلف مناطق السودان الغربي ، ولم تكن المكتبات حكرا على أسرة معينة ، كأسرة أبو العرف ومكتبة الكوتي الأندلسية [3].

ثانيا : العوامل المساعدة على التواصل الثقافي بين المغرب الأوسط والسودان الغربي

1 – دور التجار :

إن التجار المسلمين قد قاموا بدور بارز في نشر الإسلام في إفريقيا ، فقد كانت الطرق التجارية الموصلة بين المراكز الإسلامية في شمال القارة والبلاد الواقعة فيما وراء الصحراء هي المسالك الحقيقية التي تسرب الإسلام عبرها إلى قلب إفريقيا.

ومع التجار جاءت التعاليم الإسلامية ، وأصبحت المراكز التجارية مراكز للدعوة والفكر الإسلامي فكان التجار يحضرون معهم الأفكار المتحضرة عن الحكومات الإسلامية خاصة في النواحي الإدارية ، فعملوا كمترجمين ووزراء للمالية لمعظم حكام ممالك السودان . لقد كان الملوك السودانيون يستقبلون التجار بترحاب بالغ لسمو أخلاقهم ولمكانتهم وخبرتهم بالسياسة والإدارة وهذا ما سهل لهم الدخول في وسط الحاشية وهذا ما مكن لهم أن يدخلوا الملوك في الدين الإسلامي[4] وعن طريقهم كانت الطبقة العليا في المملكة تعتنق الإسلام ومن خلال الملك وحاشيته يعتنق بقية أفراد الشعب الإسلام .

[1] – عبد الحميد الجنيدي : المرجع السابق ، ص91 .
[2] – أحمد شلبي : المرجع السابق ، ج6 ، ص235 .
[3] – أحمد بابا التنبكتي : المصدر السابق ، ص 303 .
[4] – عصمت عبد اللطيف دندش : المرجع السابق ، ص 155.

ويقول ابن حوقل في هذا الصدد " عرف العرب التجارة مع إفريقيا منذ أمد بعيد ولما ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلما زاد النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها ...عني المسلمون بالطرق والأمن وحددوا المكاييل والموازين والمقاييس وأشاع التاجر المسلم حوله جوا من الثقة فوجد ترحابا أين ما حلّ وأصبح بيته منارة للفكر الإسلامي بما يحمله من مدنية وحضارة واختار مساعديه من الجنوب من خيرة الناس فهيأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار مع التجارة "[1] .

وكان التجار على اختلاف أعراقهم يجمعون بين تجارتهم ونشر الدين الإسلامي لأن التاجر على صلة مباشرة بمن يريد أن يحولهم للإسلام ، فالتاجر إذا ما دخل قرية سرعان ما يلفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات الصلاة وكان منظر المسلم في عبادته يؤثر في الزنجي الوثني ، وكان التاجر يفرض احترامه على السودانيون بما يتمتع به من سمو في الأخلاق ، ويدفعهم للثقة به من خلال عرض خدماته وإظهار أنه على استعداد بمدهم بما يحتاجونه من علم ومعرفة[2].

وبعد تراجع مكانة الطرق الشمالية بسبب انتشار قطاع الطرق وظهور الأوربيون على السواحل تدحرجت التجارة شرقاً نحو طريق توات الذي أصبح الأهم خاصة مع ازدهار مملكة سنغاي [3] ، وكانت القوافل حينها غالبا ما تكون محملة بالكتب والمخطوطات بفضل ما كانت تدره من أرباح[4] والتجار يتمتعون بثقافة علمية واسعة أهلتهم للقيام بدور علمي إلى جانب نشاطهم التجاري أو ما يعرف بظاهرة الفقهاء التجار الذين آثروا العمل بالتجارة على التدريس والقضاء لما توفره من مكاسب مادية أو هروبا من تولي منصب القضاء دون الانقطاع عن نشاطهم العلمي الذي واصلوا ممارسته انطلاقا من التجارة وفاق تأثيرهم العلمي من تفرغوا للعلم وقد تعرف الأفارقة على كثير من التجار التواتيون ومن أمثالهم الشيخ محمد فتحا ابن أبي محمد الأمريني التواتي (ت1008هـ /1600م) [5].

2 – دور الملوك :

كان لملوك السودان الغربي علاقات تجارية مع دول المغرب الأوسط ، وكانوا على اتصال دائم بالمسلمين المغاربة منذ وقت مبكر ، مما أدى إلى التعايش الكبير بين الجالية المسلمة وبين أهل السدان الغربي

[1] – ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 99 .

[2] – عطية مخزوم الفيتوري : المرجع السابق ، ص104 .

[3] – مبارك جعفري : علماء توات وتأثيرهم في السودان الغربي خلال القرن 12هـ / 18م ، دورية كان التاريخية ، دار ناشري للنشر الإلكتروني ، الكويت ، 16 سبتمبر 2012 ، ع16 ، ص91 .

[4] – حسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص167 .

[5] – مبارك جعفري : نفس المرجع ، ص91 .

وكان لهم تأثير كبير عليهم لدرجة أن مملكة غانا كانت تضم مدينتين واحدة للمسلمين و بها إثنى عشر مسجدا وبها الأئمة والمؤذنون والفقهاء وحملة العلم وأخرى خاصة بالملك وتحتوي على مسجد واحد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين[1]، وقد أصبح الملوك معجبين بالمسلمين ويعتمدون عليهم في إدارة شؤون البلاد ،ويقتدون بهم في أخلاقهم ولباسهم،فكان من الحري بهم أن يتبعوا دينهم أيضا[2].

ولقد كان أول من اعتنق الإسلام من ملوك مالي حسب ابن خلدون يدعى برمندانه أو المسلماني[3] والذي أسلم على يد أحد المسلمين بعد أن أرشدهم إلى الإيمان بالله لفك كربتهم حين أجدبت الأرض عليهم وبإسلامه أسلمت معه عشيرته وحاشيته دون أهل مملكته [4] ولقد راعى الملوك مشاعر ومعتقدات أغلبية رعاياهم المتمثلة في عبادة الأوثان والقوى السحرية وأرواح الأجداد [5]، ومنه القول أن الإسلام كان في البداية ديانة الملوك وهو ما جعلهم يضطلعون بمهمة نشره بين رعاياهم وتحولوا إلى دعاة وأصحاب رسالة حضارية رغم أنهم لم يكونوا يدركوا منه غير ما أخذوه عن العلماء الوافدين[6].

ولقد تحدثت المصادر العربية عن الدور الذي لعبه منسا موسى في نشر الإسلام واهتمامه بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وكذا اهتمامه بأداء فريضة الحج حتى سمي الملك الحاج ، حيث كان عندما يخرج إلى الحج يقوم ببعض الأعمال كبناء المساجد كبناء المسجد الكبير بتمبكت ومسجد ديري كما عرف عنه جهاده في سبيل إعلاء كلمة الله [7].

وقد تحدث ابن بطوطة عن مملكة مالي عندما كان يحكمها شقيق منسا موسى منسا سليمان فقال أنه أشبه بسلاطين المسلمين من خلال تدينه وحبه للعدل وتقربه من العلماء والفقهاء وحرصه على الصلاة حيث أنه إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الناس لن يجد أين يصلي لكثرة الناس[8] وذكر عنه أنه يربط أبناءه يوم العيد بسبب عدم حفظهم لآية من كتاب الله [9].

---

[1] – لمبارد لويس : المرجع السابق ، ص175 .

[2] – شعباني نور الدين : المرجع السابق ، ع14 ،ص49 .

[3] – ابن خلدون : العبر ، المصدر السابق ، ج6 ، ص266 .

[4] – البكري أبوعبيد الله : المصدر السابق ، ص178 .

[5] – نفسه ، ص 189 .

[6] – شعباني نور الدين : المرجع السابق ، ع14 ، ص49 .

[7] – الهادي المبروك الدالي : المرجع السابق ، ص63.

[8] – ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص290 .

[9] – أحمد الشكري : المرجع السابق ، ص204 .

ولقد عمل الملوك السودانيون على تنشيط الثقافة من خلال تشجيع واحترام العلماء والفقهاء فقد شجع الأسيقيون الحركة الثقافية وبجلوا العلماء وقدروا الأدباء وعملوا على جلب الكتب واقتنائها مهما بلغت أسعارها ، وأهدوا الكتب إلى من يطلبها فقد أمر الأسقيا داود (1549 - 1582) بنسخ مجموعة من الكتب والمخطوطات من أجل توزيعها على العلماء والفقهاء والطلبة مجانا[1]، كما قاموا بإسقاط الغرامات عن العلماء ومنعوا عنهم ظلم رجال الدولة وكان للملك وحده حق النظر في أية شكوى ضد عالم أو فقيه ، وقد أغدقوا عليهم الأموال وشجعوهم على الإقامة في بلادهم لتثقيف الناس وإرشادهم[2] ، وذكر الوزان أن الحكام كانوا يدفعون مرتبات حسنة للفقهاء والأئمة والقضاة [3].

3 – دور الرحلة :

تعتبر الرحلة العلمية مظهرا من مظاهر الحركة العلمية ودعامة من دعائمها ولقد قال في شأنها ابن خلدون " إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين ورسوخها فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد و الكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال "[4] .

لذا كان دور علماء المغرب وفقهائه ودُعاته ، سواءٌ منهم الذين كان تأثيرُهم مباشراً على ثقافة السودان الغربي بحضورهم في أرض السودان أو الحضورِ إليهم في أرض المغرب، أم غيرَ مُباشِر بواسطة كتُبهم ومؤلفاتهم التي انتشرت واشتهرت في أفريقيا الغربية، وأصبحت تمثل المصادر والمراجع المعوَّل عليها والمتون التي لا بد من حفظها واستظهارها والاستشهاد بأقوالها ونصوصها.

فأما الوافدون من فقهاء المغرب وعلمائه ودُعاته، فكانت رحلتُهم إلى السودان الغربي مستمرّةً طيلة مراحل التاريخ الإسلامي دون انقطاع ، فالإسلامُ لم يكن ليصل إلى تلك البقاع، ويستقرَّ في تلك الأصقاع قبل المرابطين، دون دعاة وفقهاء وأئمة كان همُّهم في نشر رسالة التوحيد وثقافة الإسلام ولغة القرآن وليس في تخليد أسمائهم. وكان لعلماء توات، وخاصة أسرة الكُنتيّين ، حظوةٌ خاصة عند ملوك بُرنو الإسلامية ويعتبرونهم من المرابطين وينظرون إليهم نظرة إكبار وتعظيم، ويسعون لاستقدامهم إليهم وإغرائهم بالإقامة بينهم .

[1] – عثمان برايما باري : جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي ، دار الأمين ، القاهرة ، ط1 ، 2000، ص29 .

[2] – شوقي عطا الله الجمل ، عبد الله عبد الرزاق : المرجع السابق ، ص118 .

[3] – حسن الوزان : المصدر السابق ، ص167 .

[4] – عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص614 .

ومن أشهر مشاهير العلماء الذين قدموا من توات، فزاروا المنطقة وأقاموا فيها واحتفظت لنا كتبُ التاريخ بأسمائهم: نذكر في مقدمتهم المغيلي أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم التلمساني فقيه ومفسر ومتكلم توفي (909هـ) في توات له البدر المنير في علوم التفسير ومصباح الأرواح في أصول الفلاح وشرح بيوع الآجال وصاحب التصانيف والرسائل والأجوبة المعروفة[1]. كانت له حظوةٌ كبيرة عند ملوك كانُو وكاتشينا ببلاد الهوسا، وملك السُنغاي أسكيا الحاج. كما كانت له اليدُ الطُّولى في رسم خطوط السياسة الشرعية لهذه الإمارات وتعيين القضاة وإقامة الحُدود الشرعية، وإصلاح أمور المجتمع الدينية والدنيوية والتعليمية والثقافية ، وتكوين الأئمة والمرشدين والفقهاء والدعاة، وتقديم المشورة والنُّصح للحكّام وذوي الأمر الذين كانوا ينزلون عند رأيه وأحكامه ومشورته ولا يُمضون شيئاً ذا بال إلا بموافقته. وقد ترك المغيلي مجموعة فتاوى ورسائل فيها تحديدٌ وتوجيه لمعالم الطريق التي ينبغي أن يسلكها الحُكام في سائر أمورهم ، فصار له شأن كبيرٌ عندهم، واستمرَّ تأثيره أجيالاً من بعده حتى وجدنا خلفاء الدولة العُثمانية الفوديوية بعد حوالي ثلاثة قرون يعتبرون كتبَه ورسائله وفتاواه المِشكاةَ التي بها يستنيرون، والمِعلَمَ الذي به يهتدون، فلا يفترون عن ذكره والاحتجاج بأقواله وأرائه في كل ما تركوه من أعمال ومصنَّفات، ويندر جداً أن تجد كتاباً من كتب تاريخ السودان الغربي حديثاً أو قديما، خالياً من ذكر المغيلي ومآثره.

ولم يكن المغيلي وحده صاحب الشأن والتأثير، فقد جاء آخرون أيضاً وكان لهم دورٌ كبير في الحياة العلمية والثقافية منهم الفقيه عثمان بن خليفة السوفي المارغني أبو عمرو (ت ق6هـ/12م) أحد أعلام الإباضية البارزين، أصله من بلاد سوف أحيى المذهب بتآليفه الهامَّة ، كانت له حلقات للعلم تخرَّج فيها علماء أفاضل ، وامتاز بمقدرته الجدلية في الدفاع عن المذهب ، نشأ في عصر ازدهرت فيه الحركة العلمية بورجلان ، والتقى أبرزَ أعلامها ، فكان من شيوخه بها : أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر (ت504هـ/1110م) وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت471هـ/1078م) ، وأبو سليمان أيوب بن إسماعيل، ومن رفاقه أبو يعقوب يوسف ابن إبراهيم الورجلاني (ت570هـ/1174م)، وأبو عمَّار عبد الكافي(ت قبل570هـ/1174م) كان كثير الرحلات في طلب العلم ونشره، انتقل بين ورجلان وبلاد الجريد وطرابلس، والبلاد الإفريقية[2].

وفي الجهة المقابلة أي من رحل لحواضر المغرب الأوسط نجد الشيخ عبد الله الفلاني الذي قدم إلى تنيلان من بلاد التكرور في رحلة لطلب العلم ودرس على يد الشيخ عبد الرحمان بن عمر التواتي التنلاني

[1] – عادل النويهض : معجم أعلام الجزائر – من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1980 ، ط 2 ، ص 308 .

2- الشماخي: السير، طبعة الحجرية، القاهرة، 1883، ج2، ص103، 169، 170، 173 .

ومكث عنده مدة شهرين وست ليالي ، وقام بتدوين تلك الرحلة التي يصور لنا من خلالها كيفية قدومه لتوات وبعضًا من الأحوال الاقتصادية بها ، كما يتحدث عن إجازة الشيخ عبد الرحمان بن عمر له [1].

وما هؤلاء الذين ذكرناهم سوى عيِّنة ممن احتفظ التاريخُ بأسمائهم، من العلماء والفقهاء الذين وفدوا إلى إفريقيا وتركوا فيها بعض آثارهم وبصماتهم. مع العلم أن كتابة تاريخ العلم والعلماء في المنطقة لم تبدأ في الظهور إلا مع أوائل القرن العاشر الهجري، أي مع ظهور كتاب كعت المسمى تاريخ الفتاش الذي بدأ صاحبُه في كتابته سنة 925هـ ، وما تبعه من مؤلفات أخرى ككتابَي أحمد بابا التنبكتي النَّيل والكفاية، وتاريخ السعدي المعروف بتاريخ السودان ، ثم تذكرة النسيان ، وما تبعها من بقية الكتب الأخرى.

أما قبل ذلك فلم تكن لدينا وثائق أو فهارس بها أسماء العلماء .ولذلك لا غرابة أن تضيع أسماءُ الكثير من العلماء والفقهاء المغاربة الذين أسهموا في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية وبناء النهضة العلمية طيلة القرون التسعة الأولى، إلا ما جاء عَرضاً على لسان بعض الرَّحالة والمؤرخين والجغرافيّين ممن دخلوا المنطقة (كابن بطوطة وابن الوزّان) أو وصفوها من بعيد كالبكري والعُمَري والإدريسي والمقريزي وابن خلدون وسواهم.

ثالثا : تأثير المغرب الأوسط في حضارة السودان الغربي .

إن تأثير المغرب الأوسط في السودان الغربي أدى إلى قيام حضارة سودانية إسلامية كان من أبرز مجالاتها :

أولا : نشر المذهب المالكي و الإباضي .

1 – نشر المذهب المالكي :

رغم أن الخوارج كانوا أول من عرف أهل السودان الغربي بالإسلام[2] ودعاتهم أوّل من رفع راية الإسلام الأولى بين طبقة التجار والحكام في ممالك إفريقيا الغربية إلا أن المذهب السني هو الذي ساد في آخر المطاف فقد أكد ابن خلدون هذا الأمر بقوله " وأما مالك رحمه الله فأختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم ، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلاّ في القليل "[3] ويبدو أن انتشار المذهب المالكي وتفوقه على بقية المذاهب الأخرى في السودان الغربي قد تأثر كثيراً بالحركة المرابطية التي ظهرت خلال القرن الخامس للهجرة /

[1] – الولاتي البرتلي : المصدر السابق ، ص201 .

[2] – نور الدين شعباني : التواجد المذهبي في السودان الغربي بين القرنين 5 – 10هـ ، دار ناشري للنشر الإلكتروني ، الكويت ، 2011 ، ع 11 ، ص39 .

[3] – ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق ، ص463 .

الحادي عشر ميلادي[1] ، وذلك أن عبد الله بن ياسين الذي نشر الدعوة المرابطية في الصحراء الغربية وبلاد السودان الغربي كان سنيا مالكيا ، أما العامل الآخر فهو رحلات الحج التي كان يقوم بها مسلمو السودان إلى أرض الحجاز[2]، وذلك أن أهل السودان كانوا يعتبرون أن كل ما جاء من مدينة الرسول صلى الله وعليه وسلم هو الحق المطلق لذا تشبثوا بالمذهب المالكي[3] ، إضافة إلى جلب ملوك السودان الغربي لكتب الفقه المالكي فقد جلب منسا موسى عند عودته من الحج الفقهاء والكتب على مذهب الإمام مالك وكذلك فعل أخوه منسا سليمان ومن هذه الكتب الموطأ للإمام مالك وكتب المغيلي، والونشريسي[4] .

وعموما فإن المذهب السني المالكي أصبح هو المذهب الرسمي للسودان الغربي ومعتنقيه يدعون توري بلغة المالنكي[5] ولقد اختص منسا موسى مجلسه بفقيه مغربي مالكي أصله من بجاية بالمغرب الأوسط وهو القاضي شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي الذي يظهر أنه جالس منسا موسى كثيرا في قصره . ونلاحظ هنا أنه رغم ارتباط السودانيون بمصر إلا أنهم لم يتأثروا بالمذهب الشافعي الذي كان سائدا حينها وهو ما يفسر بمدى تأثير العلماء والفقهاء المغاربة في الثقافة الدينية للسودان ومدى تمسك ملوك السودان بالمذهب المالكي [6].

ولقد كان تأثير المذهب المالكي واضحا في الحياة اليومية لسكان السودان الغربي ، فقد كان شيوخ وقضاة مملكة مالي أمثال القاضي الحاج جد القاضي عبد الرحمان بن ابي بكر بن الحاج الذي تولى القضاء بتنبكتو في أواخر مملكة مالي ، والقاضي الفقيه محمد الكابري ، والقاضي عمر الذي كان قاضيا بتنبكتو أيام الحاج أسقيا ملك سنغاي ، وكذا القاضي ابو عبد الله أند غمحمد بن الفقيه ، وغيرهم كلهم على مذهب الإمام مالك ويحكمون بفقهه[7]. كما ظهر التأثير المالكي في عبادات أهل السودان الغربي في الصلاة ، كالسدل بعد تكبيرة الإحرام ، والنوافل مثل تحية المسجد وغيرها [8].

---

[1] – أحمد الشكري : المرجع السابق ، ص227 .

[2] – ابن خلدون : المقدمة ، نفس المصدر ، ص 436.

[3] – نور الدين شعباني : المرجع السابق ، ص57 .

[4] – نفسه ، ص 57 .

[5] – المقريزي تقي الدين أحمد بن علي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك : تح جمال الدين الشيال ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، 2000 ، ط1 ، ص142 .

[6] – أحمد شكري : نفس المرجع ، ص – ص ، 249 ، 250 .

[7] – السعدي عبد الله بن عبد الرحمن : المصدر السابق ، ص – ص ، 28 ، 30 .

[8] – نور الدين شعباني : نفس المرجع ، ص40 .

2 – نشر المذهب الاباضي

لقد أدى استقرار الإباضية على أطراف الصحراء في واحات المغرب الأوسط منذ القرن الثامن الميلادي إلي ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء، وعزز من ذلك الارتباط اعتناق مجموعات من قبيلتي هوارة وزناتة للمذهب الاباضي وتخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء[1] .

وساهمت هذه العلاقات الاقتصادية في تنقل عدد كبير من التجار والفقهاء إلى السودان ومنهم من استوطن هناك ، وذكر الشماخي أن أحد شيوخ وعلماء الاباضية يدعى أبا صالح كان يسافر إلى غانة بغرض التجارة وأن شيخا آخر يدعى أبا موسى هارون استقر في مدينة غيارو المشهورة بالذهب حتى وفاته [2].

ولقد أسهم هذا التوافد في اعتناق الكثير من مسلمي السودان الغربي لمذهبهم ، وهنا يحكي ابن بطوطة أنه عند زيارته لإمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا موسى وجد بها قرية صغيرة يسكنها تجار السودان يسمون الونغارا ويسكنون معهم جماعة البيضان يتمذهبون بمذهب الاباضية ويسمون صغنغو. [3]

ولقد أثر الاباضيون في أهل السودان بفضل سلوكهم الحضاري الذي أدهش التجار السودانيون فقد كانت أخلاقهم الطيبة وحسن معاشرتهم وصدقهم وأمانتهم وكانت أخلاقهم دعاية لهذا المذهب وربما السبب في اقتصار تأثير المذهب على مناطق تواجد التجار . [4]وإن اقتصر التأثير على جوانب العبادات من شهادتين وصلاة وزكاة وحج ، دون الجوانب المذهبية [5].

ويذكر الدرجيني بعض المعلومات الهامة، فقد وضح أن أهل مدينة مالي كلهم آمنوا بالإسلام وكذلك فعل كثير من أهل المدن المجاورة الذين كانوا تحت حكم ملك مالي بينما طلب أهل المدن البعيدة–وهم أيضاً تحت نفوذ ملك مالي– تركهم على ديانتهم فسمح الملك لهم بشرط أن لا يدخل مدينة مالي كافر[6].

---

[1]- ابن خلدون: العبر ، ج6 ، المصدر السابق ، ص286.

[2] - نور الدين شعباني : المرجع السبق ، ص36.

[3] - ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص680.

[4] - ابن عذارى : المصدر السابق ، ج2 ،ص214 .

[5] - نور الدين شعباني : نفس المرجع ، ص37 .

[6]- أحمد الياس حسن : دور فقهاء الاباضية في إسلام مملكة مالي، قبل القرن 8 هـ، المجلة التاريخية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، العدد9، ص94.

ثانيا : انتشار اللغة العربية :

إن انتشار اللغة العربية كان شيئاً مُلازِماً بالضرورة لانتشار الدين الإسلامي. فحيثما توجَّه الإسلامُ واستقرَّ، استقرَّت معه لغةُ القرآن التي هي أداةٌ ضرورية لفهم الوحي والتنزيل عند المسلمين، وضرورية أيضاً لأداء فريضة الصلاة، وحفظ السُّور وقراءة الأوراد، كما هي ضرورية لفهم الكتُب الدينية الأساسية

وأصبحت لغةَ الدين والتعليم بمختلف أطواره، ولغة التأليف والشعر والأدب وسائر العلوم، ولغة القضاء، والتعامل الإداري والمكاتَبات التجارية والدبلوماسية، وغيرها من المعاملات التي يُحتاج فيها إلى التخاطُب بالكتابة[1]. فالكتابة لم تُعرَف في أفريقيا إلا بواسطة اللغة العربية,. وكلُّ ما كان يُحتاج إلى أن يُكتب فإن كتابته كانت تتمُّ بهذه اللغة دون سواها. وبالجملة فإن الثقافة في أفريقيا كانت ثقافة شفوية إلى أن دخلت اللغةُ العربية، وتاريخُها نفسُه كان تاريخا شفويا لم تبدأ مرحلةُ تدوينه إلا بدخول هذه اللغة.

فكُتبت به الهوسا و السَّواحلية وغيرها من اللهجات المحلية [2] ، وقد ازدهرت العربية ازدهاراً كبيراً في ظل الممالك الإسلامية السُّودانية ورغم أنها لم تكن لغةَ التخاطب اليومي إلا أنها، كانت هي اللغة التي تُستعملُ في أداء الوظائف الدينية والثقافية والعلمية والإدارية. وكان عددٌ من حُكّام هذه الممالك والدول يُتقنونها إتقاناً جيّداً ويُحسنون استعمالها تكلُّماً وكتابةً، شعراً ونثراً وتأليفاً. ولعل أقدم هؤلاء السلاطين والحُكام معرفةً بالعربية هو سلطان مالي الحاج منسا موسى الذي دلَّت القرائنُ الكثيرة على معرفته بالعربية وتذوّقِ شعرها وأدبها، بدليل ما يُحكَى عن إبراهيم الساحلي أنه صنع لهذا السلطان، وهما يومئذ بالمدينة المنوَّرة خلال موسم الحجّ « روضةً أدبية تحتوي على نظم ونثر وتَصفُ الحالَ في الزَّورة النبوية، ورسمَ الملكُ المذكورُ أن تُقرأ عشيةَ كلِّ جمعة تُجاه الروضة الجليلة، وبذَلَ في ذلك أموالاً جمة »[3] .

والظاهر أيضا أن سلطان السُّنغاي الحاج محمد أسكيا الذي عاصره المغيلي وعاش مدةً في كنفه وألَّفَ له رسائل ووصايا، ورسَمَ له حدود السياسة الشرعية السلطانية التي يجب اتِّباعُها، كان أيضاً من العارفين باللغة العربية. فهو الذي كتب إلى المغيلي أسئلته المشهورة التي استدعت الإجابةُ عنها كتابةَ أجوبة تسمى أجوبة المغيلي على أسئلة أسكيا.

في مقدمة هذه الأسئلة نجد السلطان يشتكي من ضعف فقهاء عصره ومملكته في علوم الدين واللغة العربية فيقول:« مذ منَّ اللهُ علينا بالإسلام أصابتنا مُصيبةٌ في هذا البلد، لعدم الأمانة فيمن يُنسَبُ إليه العلمُ

[1] – توماس أرنولد : المرجع السابق ، 389 .

[2] – نور الدين شعباني : المرجع السابق ، ص165 .

[3] – العمري ابن فضل الله : المصدر السابق ، ج1 ، ص71 .

من قُرّاء بلادنا، ومن ضعفهم أنهم عجَمٌ لا يفقهون من كلام العربية إلا قليلاً من كلام عربِ بلادهم على تصحيفٍ وتحريف وعُجمة عظيمة، بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ولا موضعَ التَّصحيف والتحريف، ومع ذلك لهم كتبٌ يُدرّسونها وحكاياتٌ وأخبارٌ، ومنهم قُضاةٌ ومفسِّرون يتكلمون في دين الله، ويزعمون أنهم من العلماء الذين هم من ورثة الأنبياء، وأنه يجب علينا الاقتداءُ بهم ..»[1].

ثم طلب منه أن يفصِّل له الكلام في هذه المسألة وهل يجوز الثقةُ بعلماء من هذا المستوى والاقتداءُ بأقوالهم، كما طلب منه أن يرسم له السياسة الشرعية لإصلاح مملكته وفق الشريعة وسُننها .

فهل كان لأسكيا الحاج أن يتكلم بهذه الطريقة إن لم تكن له معرفةٌ جيّدة باللغة العربية .

وقد انتقل حب المغاربة للنحو والصرف إلى السودان ، لأن كثيرا من كتب النحو ، حملها الأساتذة العرب والبربر، إلى إفريقيا الغربية ، صحبة ما أدخلوه إلى تلك البقاع ، وكان الطلاب يقبلون على الدراسة بشغف ونهم واضح ، مما ساعد على انتشار المدارس[2].

ثالثا : نشر الطرق الصوفية .

لقد شهدت هذه المنطقة بداية تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية منذ أن توطَّد الحكم العربي في الشمال الإفريقي ، وظلَّت هذه التأثيرات في ازدياد بفضل نشاط التجار المغاربة عبر الصحراء الكبرى، حيث كان لنشاطهم واستقرارهم أكبر الأثر في انتشار الإسلام بين قبائل الصحراء الكبرى (صنهاجة الصحراء) وفي الجهات التي ارتادوها من إقليم السودان الغربي.

كما صاحب انتشار الإسلام في توات خاصة وغرب إفريقيا عامة انتشار الطرق الصوفية، وذلك أن أتباع الطرق يدعون إلى الإسلام عن طريق التصوف ويعرفون بشيوخهم وفقهائهم الذين كانت لهم مكانة عظيمة في قلوب أتباعهم، فالأفارقة الوثنيون كانت تتحكم في تفكيرهم الخرافات والأساطير هذا ما سهل نقلهم إلى الإسلام عن طريق التصوف[3].

[1] - المغيلي محمد بن عبد الكريم : أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي ، تق و تح : عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1974 ، ص ص ، 23 ، 24 .

[2] – عصمت عبد اللطيف دندش : المرجع السابق ، ص168.

[3]– عبد الله عباس: التأثيرات الحضارية لمنطقة توات في بلاد السودان الغربي، مذكرة الماجستير، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر، 1997-1998م، ص113.

1 – الطريقة القادرية :

كانت الطريقة القادرية أوسع الطرق انتشارا في السودان الغربي وقد استقرت في البداية في منطقة توات جنوب المغرب الأوسط، ثم هاجرت من توات إلى ولاتة أواخر النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، واتخذوا منها أول مركز لنشر الطريقة القادرية، ثم صاروا من أبرز دعاتها الذين أثروا في الجموع[1].

ويعود تأسيسها إلى العراق على يد محي الدين بن محمد الجيلاني (1079 – 1166 م)[2] ومن فرقها البكائية والمرغنية والسنوسية [3].ولقد عاش كثير من الدعاة بين الشعوب الوثنية التي رحبت بهم باعتبارهم فقهاء متعلمين فقد كانوا يدعون إلى الدين والعلم معا،وكان نشاطهم في الدعوة يقوم على الإرشاد السلمي وعلى التمسك بالفضيلة،وقد تميزت هذه الفرقة بانضمام الطبقة المترفة إلى صفوفها.

واتسعت خريطة انتشار الطريقة القادرية في بلاد السودان على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي يعد مؤسس الطريقة في المنطقة ، وعنه اخذ الطريقة الشيخ أعمر بن الشيخ احمد البكاي بن احمد الكنتي (959هـ/1552م)[4] ، تلقت ولاته المدد الثقافي من توات وحل بها رجال كانوا دعاة إلى الله ومعلمين ومرشدين ومن هؤلاء العلماء يحي كامل المحجوب الذي كان معاصر للشيخ عبد القادر الجيلاني و أنه كان معه في العراق وبوصوله إلى ولاته انتعشت حركة الثقافة العربية الإسلامية في ولاته ، ولقد كثر الدعاة القادريون التواتيون بين الشعوب السودانية ولاقوا ترحابا كبيراً ، وقد نجحت الطريقة بانضمام ملوك وأمراء السودان الغربي إليهم واتخذوا من الكنتيين مستشارين لهم فقدموا لهم خبرتهم وثقافتهم لذا أحس الزنوج أنفسهم بأنهم جزء من الأمة الإسلامية وشاركوا في الدفاع عن الطريقة القادرية[5] .

إنه من الواضح مما سبق أن الجماعة القادرية لعبت دورا هاما في نشر الدين الإسلامي في السودان والتعريف بالحضارة الإسلامية كما أنه قد برهن دعاة القادرية على أهم أوفياء لمبادئ دعوتهم .

---

[1] – يحي بوعزيز : تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2001 ، ص17.

[2] – عبد الله بن دجين السهلي : الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها ، دار كنوز اشبيلية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط 1 ، 2005 ، ص84.

[3] – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، 1983 ، ط 4 ، ج 6 ، ص211 .

[4] – مبخوت بودواية : دور علماء تلمسان الزيانية في ترسيخ الحضارة الإسلامية بالسودان الغربي(15—16هـ) ، مجلة الواحات،المركز الجامعي غرداية العدد الأول ، 2006 ، ص9.

[5] – سبنة عامر : الأدب السنغالي العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1978 ، ج 1 ، ص33 .

2– الطريقة الشاذلية:

من الطرق الصوفية التي تفرعت عن الطرق الكبرى في القارة الإفريقية، ، والشاذلية نسبة إلى أبي الحسن علي بن عبد الله المولود بغمارة من قرى سبته سنة (593هـ/1196م) ،وهو زاهد ضرير أخرجه أهل تونس وكتبوا إلى أهل مصر أنه يقدم إليكم مغربي زنديق وقد أخرجناه من بلدنا فاحذروه، ونزل إلى الإسكندرية وكثر أتباعه.[1] ولد عام 1196م وتوفي سنة 1258م /565هوتعتبر الشاذلية إلزامية بأفكارها وفلسفتها ، أكثر من كونها طريقة صوفية ذات ممارسات محددة كسائر الطرق المنتشرة في غرب إفريقيا [2].

وتواجد الشاذلية في الغرب الإفريقي قديم، وليس أقدم منها في أرض الصحراء إلا القادرية، بل إن بعض الباحثين يرى أن الشاذلية أقدم من حيث الوصول، وهي تأتي من حيث الانتشار في الغرب الإفريقي بعد القادرية ؛ لأن الشاذلية طريقة الفقهاء، وبالتالي لا يتسنى لأي أحد أخذ الورد الشاذلي[3].

[1] - عبد الله بن دجين السهلي : المرجع السابق ،،ص86.
[2] - عثمان برايما باري : المرجع السابق ، ص231 .
[3] _ عبدالحليم محمود : المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلي، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، دت ، ص23.

الخاتمة

وأخيرا وفي نهاية هذا البحث نخرج بالنتائج التالية :

1- أن مصطلح المغرب الأوسط تأخر ظهوره إلى غاية القرن الخامس هجري والذي أشاع استعماله هو البكري ، على أساس انه كيان سياسي قائم ، مركز ثقله زناته ، لم يعرف حدودا رسمية إذ كان محل صراع ونزاع دائم ، وتعاقبت على حكمه مجموعه من الدول ، بداية بصنهاجة ثم بني حماد ثم الموحدون نهاية ببني زيان .

2- أن العرب هم أول من أطلق كلمة سودان على الأقوام الذين يقطنون جنوب الصحراء الكبرى للتفريق بينهم وبين سكان شمال إفريقيا .

3- أن منطقة السودان الغربي أو ما يعرف بإفريقيا جنوب الصحراء ، تشمل كل من حوض السنغال وغامبيا وفولتا العليا والنيجر الأوسط .

4- أن الإسلام يعتبر من أهم الأحداث التاريخية في المنطقة والتي غيرت مجرى التاريخ ، والذي انتشر فيها عن طريق التجار المرابطين ؛ بسبب إحتكاكهم المباشر بالمسلمين في عملية البيع والشراء .

5- نشأت في بلاد السودان الغربي مجموعه من الممالك ، كمملكة غانة ومالي وكانم وبرونو والسنغاي .

6- جمع المغرب الأوسط بالسودان الغربي علاقات تجارية ، حيث تصدر السودان الذهب والعبيد ، إضافة إلى بعض الصادرات الأخرى ، ويصدر المغرب إلى السودان الملح والتمور والقمح والكتب وإلى غير ذلك من المواد .

7- أن التجارة تعتمد على بعض الوسائل كالمقايضة والمعاملات النقدية والصكوك ، ويعتمدون على مسالك محددة ، المسلك الأول ينطلق من تيهرت مارا بسجلماسة ومنها إلى اودغست وصولا إلى غانة والمسلك الثاني يبدأ من تلمسان مرورا بغرداية وتوات ، وأما المسلك الثالث فينطلق من تيهرت إلى ورجلان ويمر بتادمكت ليصل إلى كوكو ، ومن أبرز المراكز التجارية في السودان الغربي نجد جني وتمبكت

وأقدز وفي الجهة المقابلة نجد تلمسان وتوات وورجلان ، أما في الجانب الثقافي فقد كان تأثير المغرب الأوسط على السودان الغربي عظيم جدا حيث أنه بفضلهم انتشر الإسلام في كامل القطر السوداني .

8- ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام ، ومنه الثقافة العربية المغربي أوسطية كان دور التجار بما حملوه من أخلاق رفيعة وقدوة حسنة مما سهل عملية أسلمت الشعب السوداني ، إضافة إلى دور الملوك الذين كان لهم السبق في اعتناق الدين الجديد ودعمه ماديا ومعنويا ، إضافة إلى دور العلماء عن طريق الرحلة من المغرب الأوسط إلى السودان الغربي والعكس .

9- عمل التجار على اختلاف عقائدهم المذهبية سواء كانوا مالكيين أو اباضيين ، على نشر الدين الإسلامي دون محاولة أي من الطرفين على ترسيخ مذاهبهم .

10- انتشرت اللغة العربية وأصبحت اللغة الرسمية للإدارة والمعاملات ولغة الكتابة وإن لم تكن لغة التخاطب اليومي ، نتيجة لدعم الحكام وحبهم للغة العربية خاصة الملك منسا موسى ومحمد أسكيا .

11- وانتشرت الطرق الصوفية في المغرب الأوسط ، وكان لها باع كبير في نشر الدين الإسلامي وتعليم اللغة العربية كالطريقة القادرية والطريقة الشاذلية .

12- كان من مجالات التأثر والتأثير بين المغرب الأوسط والسودان الغربي أن أصبح السودانيون يحتفلون بالأعياد الدينية كعيدي الأضحى والفطر، وإحياء ليالي شهر رمضان ، ومن العادات أيضا تشديد العقوبة على الأبناء لحفظ كتاب الله ، والاعتناء بالمظهر واللباس والتبكير لأداء صلاة الجمعة ، هذا بالإضافة إلى التأثر بطريقة لبس أهل المغرب الأوسط واقتفاء أثرهم .

الملاحق

الملحق (01) : تحديد منطقة السودان الغربي[1] .

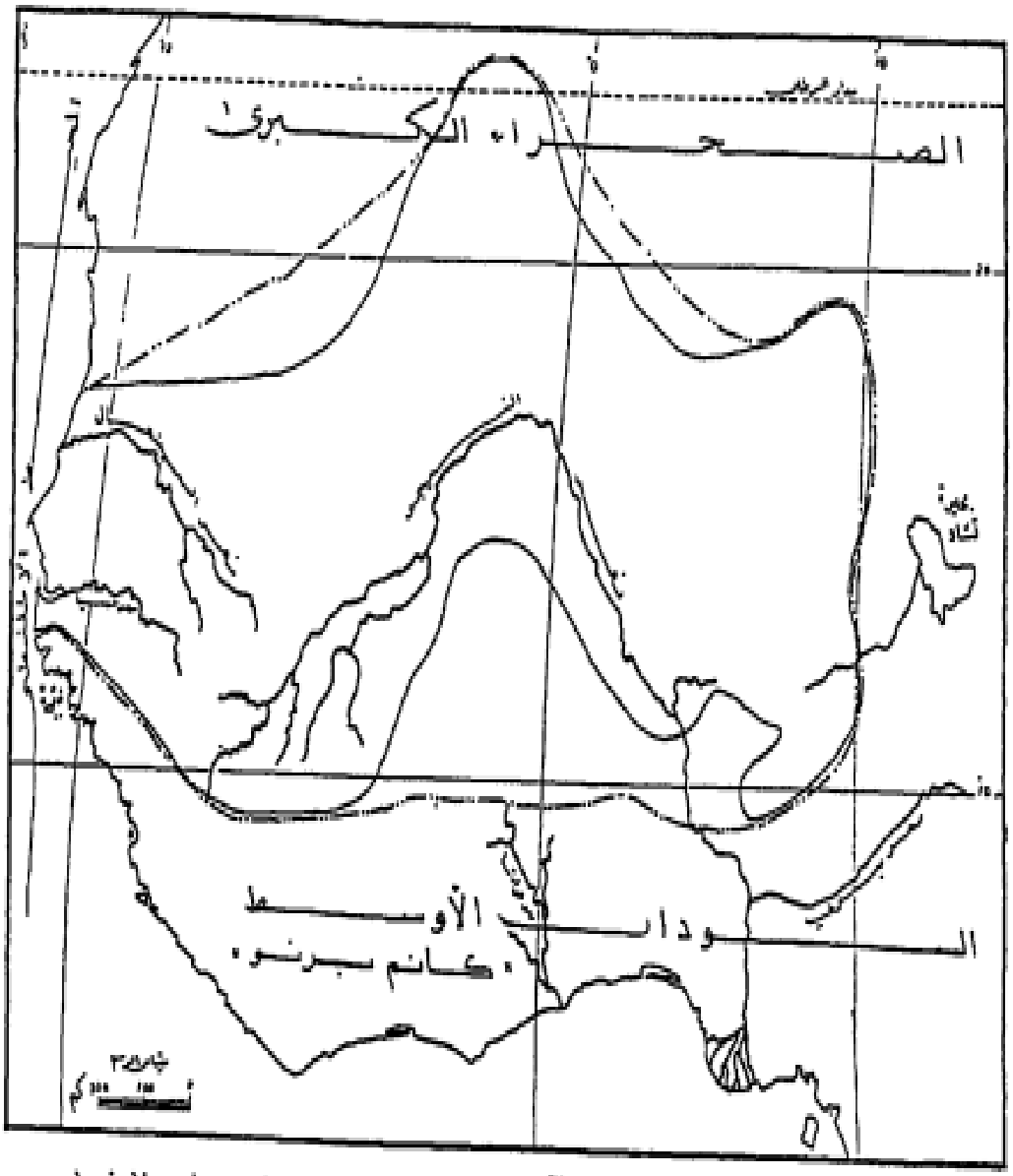

تحديد منطقة السودان الغربي .

[1] – الهادي المروك الدالي : المرجع السابق ، ص359 .

الملحق (02) : المسالك التجارية للسودان الغربي[2]

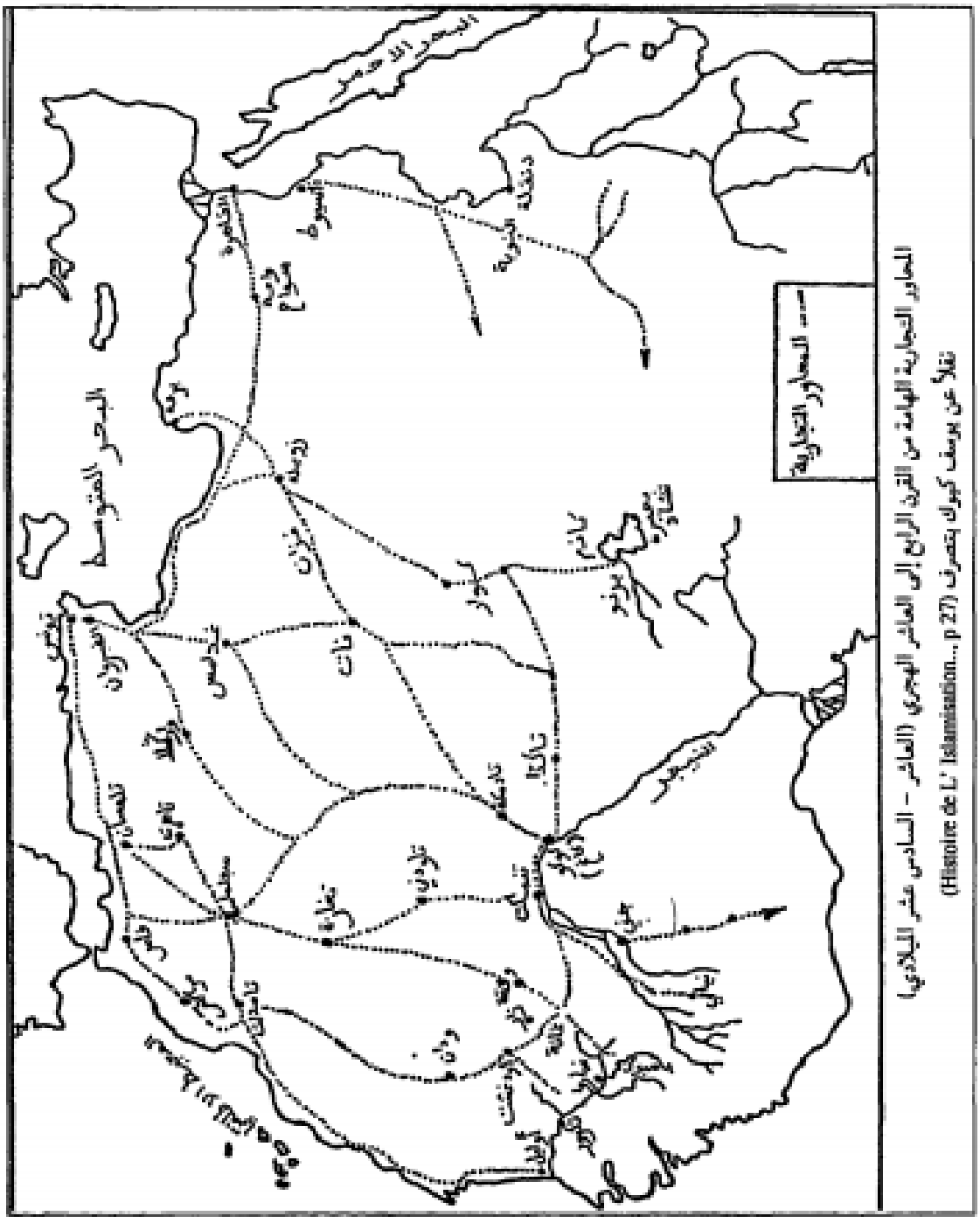

[2] – أحمد الشكري : المرجع السابق ن ص 61 .

قائمة المصادر

والمراجع

المصادر :

1– ابن الشماع التونسي: **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية** ، تحقيق الطاهر المعموري الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1984.

2– ابن بطوطة محمد عبد الله: **رحلة بن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** ، ط1 ، دار الفكر العربي للطباعة ، لبنان ، 2003 .

3– ابن حوقل أبي القاسم النصيبي : **صورة الأرض** ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992.

4– ابن خلدون عبد الرحمن: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1983.

5– ابن سعيد المغربي : **الجغرافيا** ، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2 1982.

6– ابن سلام : **كتاب النسب** ، مريم محمد خير الدرع ، دار الفكر ، بيروت ، 1989.

7– ابن عذاري المراكشي : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ، تحقيق ج، س كولان بروفنسال ، دار الثقافة بيروت ، ط3 ، 1983.

8– ابن قنفذ : **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية** ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1968.

9– ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

10– الإدريسي أبو عبد الله: **القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس** ، (د ت)، ديوان المطبوعات الجامعية 1988.

11– الإدريسي أبو عبد الله: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** ، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983.

12– الإصطخري أبو القاسم محمد بن إبراهيم: **المسالك والممالك** ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال ، دار القلم ، القاهرة ، (د ت) .

13– البكـري أبو عبيـد الله: **المغـرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، مكتبة المثنى، بغداد، العراق،(د ت).

14– بن خلدون عبد الرحمن: **المقدمة** ، تحقيق محمد الاسكندراني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 2006 .

15– التنبكتي أحمد بابا: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج ، تح : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الاسلامية ، طرابلس ، (د ت)

16– التنبكتي محمود كعت: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس** ، تح هوداس وديلافوس ، باريس ، 1913.

17– الحموي ياقوت : **معجم البلدان** ، دار صادر ، بيروت ، 1977 .

18– الحميري محمد بن عبد المنعم : **الروض المعطار في خبر الأقطار** ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط2 ، 1984 .

19– الدمشقي أبو الفضل جعفر بن علي : **الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها** ، دار صادر ، لبنان ، ط1 ، 1999.

20– الزركشي : **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس، ط2 ، 1996.

21– الزهري محمد بن أبي بكر: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق محمد صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د ت) .

22– السعدي عبد الرحمن بن عبد الله: **تاريخ السودان** ، ط5 ، نشر هوداس ، باريس ، 1983.

23– الشماخي : السير، طبعة الحجرية، القاهرة، 1883 .

24– عبد الواحد المراكشي : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1998.

25– العمري ابن فضل الله : **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** ، تح : حمزة أحمد عباس ، المجمع الثقافي ، الإمارات ، 2002 ، ج1.

26– القزويني زكريا بن محمد : **آثار البلاد وأخبار العباد** ، دار صادر ، بيروت ، 1967.

27– القلقشندي احمد بن علي الفزاري : **صبح الأعشى في كتابة الإنشاء** ، تع عبد القادر زكار ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1983 .

28– مجهول : **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** ، تحقيق محمد ابن شنب ، الجزائر ، 1920.

29– مجهول المؤلف : **الاستبصار في عجائب الأمصار** ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، وزارة الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، بغداد ، (د ت) .

30– المغيلي محمد بن عبد الكريم : أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي ، تق و تح : عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1974 .

31– المقدسي شمس الدين أبو عبد الله : **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط1 ، 2003 .

32– المقري أحمد : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تح وتع : إحسان عباس ، بيروت ، 1968، ج7 .

33– المقريزي تقي الدين أحمد بن علي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك : تح

34– الوزان الحسن بن محمد : **وصف إفريقيا** ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1983 .

35– اليعقوبي أحمد بن يعقوب : **تاريخ اليعقوبي** ، (د ط) ، دار صادر ، بيروت ، (د ت).

المراجع :

1– أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، دار الإتحاد العربي للطباعة ، مصر ، ط5 ، 1976 .

2– أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، 1983، ط 4 ،ج 6.

3– بحاز إبراهيم بكير : **الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية (160 – 296 هـ /777 – 909 م)** ، ط1 ، مطبعة لافوميك ، 1985 .

4– بدري محمد فهد : الصلات بين العرب وإفريقيا ، دار المناهج ، الأردن ، 2002 .

5– بدوي عبده : **السود والحضارة العربية** ، (د ط) ، دار قباء للطباعة ، مصر ، 2001.

6– بلغيث محمد الأمين : **نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي** ، دار الخلدونية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2007 .

7– بن قربة صالح : **المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد**، (د ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986.

8– جاسم ظاهر : **إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال** ، المكتب المصري ، القاهرة ، 2003 .

9– الجمل شوقي عطا الله ، عبد الله عبد الرزاق : **تاريخ المسلمون في إفريقيا ومشكلاتهم** ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1966.

10– جودت عبد الكريم يوسف : **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية** ، (د ط) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984.

11– حسن محمد نبيلة : **في تاريخ إفريقيا الإسلامية** ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2010 .

12– الدالي الهادي المبروك : **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء ، من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر** ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط1 ، 1999.

13– دندش عصمت عبد اللطيف : **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، 430 – 515هـ / 1038 –1121 م** دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1988.

14– ذنون طه عبد الواحد ، خليل إبراهيم السمرائي ، ناطق صالح مطلوب : **تاريخ المغرب العربي** ، دار الهدى الإسلامي ، لبنان ، 2004.

15– زبادية عبد القادر: **مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين (1492 – 1591)** ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، 1977 .

16– زكي عبد الرحمن: **تاريخ الدولة السودانية بإفريقيا الغربية** ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، 1964.

17– سبنة عامر : الأدب السنغالي العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1978.

18– السلاوي أبو العباس أحمد الناصري : **الإستقصاء لأخبار المغرب الأقصى** ، تح وتع جعفر الناصري ومحمد الناصري ، ج5 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955 .

19– شقير محمد : **تطور الدولة في المغرب إشكالية التكون والتمركز والهيمنة** ، (د ط) ، إفريقيا الشرق ، 2002.

20– الشكري أحمد : **الإسلام والمجتمع السوداني امبراطورية مالي 1230 –1240 ، المجمع الثقافي** ، أبو ظبي ، 1999.

21– شوقي عبد القوي عثمان : **التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك** ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000 .

22– الصادقي حسن : **أضواء على ممالك غرب إفريقيا وعلاقتها ببلاد المغرب** ، معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط ، (د ت).

23– الطيبي أمين توفيق :**دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، الدار العربية للكتاب، ج2، 1997 .

24– عادل النويهض : معجم أعلام الجزائر – من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1980.

25– عبد الرحمان الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، الجزائر ، 1955، ج2 .

26– عبد العزيز فيلالي : تلمسان في العهد الزياني ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2002 ، ج2 .

27– عبد اللطيف علي محمد: **تمبكتو أسطورة التاريخ** ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ، ط1 ، 2001 .

28– عبد الله بن دجين السهلي : الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها ، دار كنوز اشبيلية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط 1 ، 2005 .

29– عبدالحليم محمود : المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلي، دار الكتاب الحديث ، القاهرة دت.

30– عبد الواحد السبتي : الإسطوغرافيا والأزمة (دراسات في الكتابة التاريخية والثقافية) ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ط1، 1994.

31– عثمان برايما باري : جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي ، دار الأمين ، القاهرة ، ط1 ، 2000 .

32– العربي إسماعيل : **تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986.

33– العروي عبد الله : **مجمل تاريخ المغرب** ، المركز الثقافي العربي ،ط 2 ،2000م .

34– علي جالوا : العلاقات التاريخية بين المغرب وبلاد السودان ودورها في دخول الإسلام وآثاره في غرب إفريقيا، ندوة الدروس الحسنية ، وزارة الأوقاف المغربية ، 1406هـ/1986.

35– عمار بوحوش : **التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962** ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1997.

36– غيث أمطير سعد: **التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي فيما بين القرنين 14 و16م،** دار الرواد ، بنغازي ، ط1 ، ليبيا .

37– فرج محمد فرج : **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1977 .

38– الفيتوري عطية : **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء** ، منشورات جامعة قار يونس ، ليبيا ، 1998 .

39– مبروك مقدم : الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ، ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية ، خلال القرن 9هـ / 15م ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2006 .

40– محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ، ج3 ، 1963 .

41– يحي بوعزيز : تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2001 .

الكتب المعربة :

1– أرنولد توماس: الدعوة للإسلام ، تر: حسن إبراهيم حسن ،عبد مجيد عابدين ،إسماعيل النحراوي ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر.

2– جاك ريسلر : **الحضارة العربية** ، تر:خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ، باريس ، ط1 ، 1993.

3– جوان جوزيف : **الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء** ، تر مختار السويفي ، دار الكتب الإسلامية ، مصر ، 1984.

4– دونالد ويدنز : **تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء** ، تر راشد البراوي ، دار الجيل ، مصر 2001.

5– روسيل وورين هاو : **تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا** ، تر : عبد الوهاب محمد الزنقاني ، دار غريب ، القاهرة ، 2009.

6– لمبارد لويس : **الإسلام في مجده الأول** ، تر : إسماعيل العربي ، ط1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1997.

7– مارسي جورج : **تلمسان** ، (د ط) ، دار التل للنشر ، الجزائر ، 2004 .

8– مارغريت ميد : **الشعوب والبلدان** ، تر: غادة السمات ، مكتبة الأطلس ، دمشق ، 1959.

9– هوبكنز.أ.ج : **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية** ، تر: احمد فؤاد بلبع ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1998.

الرسائل الجامعية :

1– بسام كامل عبد الرزاق شقران : تلمسان في العهد الزياني ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، كلية الدراسات العليا ، نابلس ، فلسطين ، 2002.

2– بشاري لطيفة : **التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر هجري ، والثالث عشر الميلادي والسادس عشر** ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، الجزائر 1986 /1987 .

3– جاجوا حسين : **دور غدامس التجاري مابين طرابلس والسودان الغربي والأوسط خلال القرن التاسع عشر** ، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1981.

4– الجنيدي عبد الحميد: **مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10هـ /16م** ، مذكرة ماجستير مخطوطة ،(غير منشورة) ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، 2009 .

5– حاج عيسى إلياس بن عمر: **مدينة ورجلان (دراسة في النشاط الاقتصادي والحياة الفكرية في الفترة (4 – 10هـ / 10 –16 م)** ، أطروحة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ،جامعة الجزائر ، 2008 /2009 .

6– شعباني نور الدين : **علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي ، وآثارها الحضارية بين القرنين الرابع والتاسع الهجري العاشر والخامس عشر الميلادي** ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 2007 .

7– علي عشي : المغرب الأوسط في عهد الموحدين (دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية 534هـ/ 1139- 633هـ/1235م) مذكرة ماجستير ، مخطوطة ، جامعة الحاج لخضر ، قسم تاريخ علم الآثار باتنة ، 2012/2011 .

المجلات والدوريات :

1– أحمد الياس حسن: دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي، قبل القرن 8 هـ، المجلة التاريخية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، العدد9 .

2– بودواية مبخوت : دور علماء تلمسان الزيانية في ترسيخ الحضارة الإسلامية بالسودان الغربي(15—16هـ)، مجلة الواحات ، المركز الجامعي غرداية، العدد الأول، 2006 .

3– جعفري مبارك : علماء توات وتأثيرهم في السودان الغربي خلال القرن 12هـ / 18م ، دورية كان التاريخية ، دار ناشري للنشر الإلكتروني ، الكويت ، 16 سبتمبر 2012 ، ع16.

4– عبد الحميد الجنيدي : المدارس ونظام التعليم في مدينة تنبكتو ، في القرن 10هـ / 16م ، دورية كان التاريخية ، دار ناشري للنشر الإلكتروني ، العدد 19 ، مارس 2013 .

5– قويدر بشار : **القوافل التجارية المغاربية (طبيعة التجارة وآثارها)** ، مجلة طريق القوافل ، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ ، مطبعة عمار قرفي ، الجزائر ، 2001.

6– محمد بو شقيف: المدرسة ونظام التعلم بالمغرب الأوسط خلال القرنين 8 – 9 هـ / 14- 15 م، دورية كان التاريخية ، ناشري للنشر الإلكتروني ، ع11 ، مارس 2011 .

7– نور الدين شعباني : التواجد المذهبي في السودان الغربي بين القرنين 5 – 10هـ ، دار ناشري للنشر الإلكتروني ، الكويت ، 2011 ، ع 11.

المراجع الأجنبية :

1– Aatallah Dhia: le Royaume abdelouadite al'epoque d'Abou-Hammou Moussa 1er et d'Abou Tachfine 1er. Alger :ENAL-– OPU.

2-Chailley Marcel. Histoire de l'Afrique *Occidentale . (Paris,1968) .*

3– Jean Lethielliux : Ouargla cite saharienne librairie orientaliste , Paulgenthner S.A, Paris , 1963.

4– Le VTZ ion Nehemia : IBN-hawqal: the cheque,and awdaghost , in the journal of African history ,Edited by :J.P Faber and J.R Gray and Oliver. Cambridge University hirss, 1968 , volume IX , w2

5– Marcel Emerite , Travaux de l'Institut de Recherche sahariennes ,T11, Alger , 1954.

فهرس

الموضوعات

الإهداء
شكر وعرفان
المقدمة 02
الفصل الأول : لمحة تاريخية حول المغرب الأوسط والسودان الغربي 05
أولا : المغرب الأوسط 05
1 - المغرب الأوسط بين الكتابة الجغرافية والكتابة التاريخية.....05
أ- المغرب الأوسط في الكتابات الجغرافية 05
ب- المغرب الأوسط في الكتابة التاريخية 07
2 - الأوضاع السياسية للمغرب الأوسط 5- 10هـ/11 - 16 م 09
ثانيا : السودان الغربي.....13
1- الدلالة التاريخية و الجغرافية 13
2- انتشار الإسلام والممالك التي قامت بالسودان الغربي.....15
أ - انتشار الإسلام 15
ب - الممالك الإسلامية التي قامت في السودان الغربي 18
الفصل الثاني : العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي 5- 10هـ / 11- 16م 24
أولا : السلع المتبادلة 24
1 – صادرات السودان الغربي نحو المغرب الأوسط 24
2 - صادرات المغرب الأوسط نحو السودان الغربي 28
ثانيا : وسائل التبادل 31
1- المقايضة.....31
2 – المعاملات النقدية 32
3- الصكوك 33
ثالثا : المسالك والمراكز التجارية 33
1- المسالك التجارية 33
2- المراكز التجارية 36

أ – في المغرب الأوسط 36
ب – في السودان الغربي 37
رابعا : نظام سير القوافل ومصاعب الصحراء 39
الفصل الثالث : العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي 5- 10هـ / 11- 16م 42
أولا : ملامح الحياة الثقافية في المغرب الأوسط والسودان الغربي 42
1- ملامح الحياة الثقافية في المغرب الأوسط 42
أ- الحواضر الثقافية : 42
ب- المؤسسات الثقافية : 43
2- ملامح الحياة الثقافية في السودان الغربي 48
أ- الحواضر الثقافية : 48
ب- المؤسسات الثقافية 49
ثانيا : العوامل المساعدة على التواصل الثقافي بين المغرب الأوسط والسودان الغربي
1 - دور التجار : 53
2 - دور الملوك : 54
3 – دور الرحلة : 56
ثالثا : تأثير المغرب الأوسط في حضارة السودان الغربي ..... .58
أولا : نشر المذهب المالكي و الإباضي 58
ثانيا : انتشار اللغة العربية 61
ثالثا : نشر الطرق الصوفية 62
الخاتمة 66
الملاحق 69
قائمة المصادر والمراجع 72
الفهرسة 81

تم بحمد اللّٰہ